شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٥ إلى الدرس ٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/١٠/١٥ هـ

الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، واجعل ما نتعلمه حجةً لنا لا علينا يا ذا الجلال والإكرام . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)) .

****

قال رحمه الله: ((**وله**)) أي للإمام مسلم رحمه الله في صحيحه ((**عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً**)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**)) هذا الحديث ساقه المصنف رحمه الله في باب معرفة الله والإيمان به لأنه حديث عظيم في التعريف بالرب جل وعلا ؛ وأنه سبحانه لم يخلق هذا الخلق عبثًا ولا أوجدهم سُدى ، بل خلقهم ليأمرهم وينهاهم ، ومن أطاعه أعد له ثوابا عظيما ، ومن عصاه أعد له عذابا أليما . الجنة أعدت للمتقين الطائعين ، والنار أعدت للكافرين الجاحدين ، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي النار من النكال والعذاب الأليم والأهوال ما لا يخطر ببال .

والمصنف رحمه الله ساق هذا الحديث في باب معرفة الله عز وجل ليعرف المسلم من خلال هذا الحديث أن الله عز وجل عدلٌ وذو فضل ؛ فمن قام بطاعته سبحانه وتعالى وعبادته نال من فضل الله ونعيمه ورحمته ومنِّه سبحانه ، ومن نكل عن الصراط وكفر بالله وأعرض عن دينه عامله الله سبحانه وتعالى بعدله وأناله ما أعده سبحانه وتعالى للناكلين المعرضين من العقاب الأليم .

فهذا الحديث بابٌ عظيم في التعريف بالله عز وجل ببيان أنه عدلٌ ، وأنه سبحانه وتعالى ذو فضل ، وأنه جل وعلا ذو رحمة ومنٍّ وإنعام ، وفي الوقت نفسه ذو عذابٍ أليم ، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠] ؛ فالحديث فيه من التعريف بالله ما في

هذه الآية ونظائرها ، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ فهو جل وعلا ذو رحمة واسعة وأيضا عذابه أليم ؛ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر:٣] ، فالله جل وعلا عنده نعيم وعنده عذاب ، والحديث يدل على هذا المعنى ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)) ؛ فعنده نعيم عظيم ورحمة واسعة ، وفي الوقت نفسه عنده عذاب أليم وعنده نار وعقاب .

وهذا الحديث كما نبه العلماء رحمهم الله من الأحاديث العظيمة التي تُحدِث عند الإنسان إذا أحسن فهم الحديث وتأمله تحدِث عنده توازن في باب الرجاء والخوف ؛ وهما ركنان قلبيان للتعبد لله سبحانه وتعالى ، فالله عز وجل يُعبد رجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧] ، وقال جل وعلا: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠] . فهذا الحديث يُحدث للعبد بتأمله له وتأمله في معانيه توازنًا في باب الرجاء والخوف ، والعلماء قالوا : ينبغي للعبد أن يكون رجاءه وخوفه متوازنين ، لا يغلِّب الرجاء على الخوف ، ولا يغلِّب الخوف على الرجاء ، وإنما يمضي في عبادته وتقربه إلى الله عز وجل باعتدال وتوازن بين الرجاء والخوف. حتى إن بعض العلماء شبَّههما بجناحي الطائر ، الرجاء والخوف ، وأن الطائر إذا قُص أحد جناحيه لم يتمكن من الطيران أو إذا اختل أحد جناحيه لا يتمكن من الطيران ، ولا يتوازن طيرانه إلا إذا كان جناحيه يعملان بشكل متوازن دقيق ، وهكذا الذي ينبغي أن يكون عليه المتعبد أن يكون في تعبده لله سبحانه وتعالى بين الرجاء والخوف ، لا يغلِّب الرجاء على الخوف ؛ لأنه إذا غلَّب الرجاء وأصبح جانب الرجاء مغلبا عنده وليس عنده خوف يحدث عنده عدم خوف من عقوبة الله جل وعلا ، فلا يأمن مكر الله سبحانه وتعالى ، وإذا غلَّب جانب الخوف على جانب الرجاء أيضا يختل عنده الأمر ؛ فقد ييأس من روح الله عز وجل بسبب تغليبه لجانب الخوف ، بينما إذا أتى بهما باعتدال وتوازن راجٍ خائف اتزنت الأمور عنده ، والذي يُحدث التوازن عند العبد في هذا الباب: أن ينظر في نصوص الكتاب والسنة التي في الرجاء وأيضا نصوص الكتاب والسنة التي في الخوف ؛ فمن أعمل نصوص الرجاء وأهمل نصوص الخوف ، أو أعمل نصوص الخوف وأهمل نصوص الرجاء اختل الأمر عنده ، فالمطلوب هو التوازن بإعمال والنظر والتدبر في نصوص الخوف والرجاء مًعا . وهذا الحديث جمع الأمرين للعبد ؛ جمع له أمر النعيم العظيم وسعته وسعة رحمة الله عز وجل ، وأيضا جمع ذِكر العقاب الأليم وبشكل واضح وقوي جدا ؛ مما يجعل العبد بتأمله للحديث يكون متوازنا في رجائه وخوفه.

قال: ((**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ**)) يعني من شدتها وأهوالها وأنواعها وفظاعتها ((**مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ**)) هذا يفيد فائدة في قوله «مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ» من ينظر إلى شدة العقوبة وأهوالها ويقف في نظره إلى هذا

الحد ما الذي سيحدث له؟ من نظر إلى هذا الجانب «ما عند الله من العقوبة» ووقف عند هذا الحد لم ينتقل إلى الجانب الآخر في الحديث ما الذي سيحدث له ؟ الجواب أمامك ؛ قال: ((مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) يقنط الإنسان ، لو وقف الإنسان عند نصوص الخوف والوعيد يصاب بالقنوط ، ولهذا قال: ((مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) ، ولهذا لا يصح أن تقف عند هذه الجملة من الحديث ولا تقرأ الجملة التي بعدها حتى يتزن الأمر عندك؛ مثل حال من يقرؤون ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ويقف ولا يكمل ما بعده ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ، فهذا الذي يقول ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ويقف ؛ تجده يأمن من مكر الله ، فتراه مستمر في المعاصي والذنوب والأخطاء والآثام وغير ذلك وهو لا يزال يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فيكون آمنًا من مكر الله عز وجل ؛ وهذا باب شر على العبد وباب تفلت من الأمر والنهي والقيام بطاعة الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال هنا: ((**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ**)) .

((**وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**)) ؛ الله عز وجل عنده رحمة واسعة ، رحمة عظيمة جدا ، لكنه أخبر عز وجل أنه سيكتبها لأهل الإيمان ، وأن الكافر عندما يلقى الله يوم القيامة لا مطمع له في رحمة الله ، لكن لو أن الكافر علم بالرحمة الواسعة ، ومر معنا شيء من التفاصيل التي تبينها ((لله أرحم بعباده من هذه بولدها)) ، ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد . إذًا هذا الحديث الجانب الآخر في الحديث يفيد بأن الإنسان لو نظر إلى جانب الرحمة فقط ولم ينظر إلى جانب الخوف يأمن من مكر الله ، يبقى يقول أن الله رحيم وأن الله غفور وأن الله كريم إلى آخر هذه الأمور وينسى عذابه الأليم .

فالشاهد أن الحديث يعطي العبد توازنا عظيما في باب الرجاء والخوف وفي باب معرفة الله سبحانه وتعالى، وأيضا فيه تنبيه في باب المعرفة أن المسلم كما أنه ينبغي عليه أن يعرف الله عز وجل بأسمائه وصفاته التي هي أسماء الرحمة والبر والإحسان والإنعام والإكرام والمن والعطاء إلى غير ذلك ، ينبغي أيضًا أن يعرفه بصفاته عز وجل التي هي صفات العقوبة والانتقام والبطش بالظالمين وإهلاك المبطلين ، حتى يكون عنده أيضا توازن في باب الرجاء والخوف؛ رجاء الله وخوف عقابه، لكن من اقتصر على أسماء وصفات الإكرام والإحسان ولم يتأمل في عقاب الله وانتقامه وما أعده من العذاب والنكال فهذا لا يتحقق له الاستقامة في هذا الباب ولا يستتم له طيرانه وسيره لله عز وجل وما يقرب إليه . فهذا الحديث حديث عظيم جدًا في باب معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به .

قال رحمه الله تعالى :

وللبخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)).

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**)) ؛ شراك النعل: هو سير النعل ، ونعل الإنسان قريبٌ منه لأنه في قدمه؛ فهو قريب منه ليس عنه ببعيد .

قال: ((**الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**)) فهذا الحديث له تعلق بما قبله بمعرفة الله عز وجل وذلك بمعرفة ثوابه وعقابه ؛ ثوابه الذي أعده لمن أطاعه ، وعقابه الذي أعده لمن عصاه ، وفي الحديث هذا تبيين إلى أن ثواب الله قريب وعقابه قريب ، ثواب الله عز وجل لمن أطاعه قريبٌ جدًا أقرب لأحدكم من شراك نعله، وعقاب الله عز وجل لمن عصاه أقرب لأحدكم من شراك نعله ، الثواب قريب والعقاب قريب .

فهذا الحديث يفتح للإنسان باب زوال الغفلة عن قلبه وطول الأمل والانقطاع عن العمل والطاعة أو الوقوع في المعصية ؛ فيقال له : انتبه إن كنت مطيعًا فاعلم أن ثواب الله سبحانه وتعالى لك قريب ، وإن كنت خلاف ذلك فاعلم أن عقابه قريب . ولا أبلغ من هذا الوصف قال: ((**أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ**)) ، ولهذا يأتي أحاديث كثيرة تبين قرب الجنة والنار ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ))، ((مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) الجنة قريبة ، ((مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إلا الْمَوْتُ)) ، الجنة قريبة من أهلها والنار قريبة من أهلها ، ليس بين أهل الجنة والجنة إلا الموت ، وليس بين أهل النار والنار إلا الموت ، والموت قد يأتي الإنسان بعد لحظة ، يعني بعد ساعة وساعتين أو أقل أو أكثر، فليس بين الإنسان وبين ثواب الله ونعيمه وجنته -الإنسان المؤمن- إلا أن يموت ، وليس بين الكافر وبين عقاب الله وناره إلا أن يموت ، فالجنة قريبة والنار قريبة .

إذًا هذا حديث في باب معرفة الله عز وجل وأنه سبحانه وتعالى ثوابه وجنته قريبة ممن أطاعه ، وأن عقابه وناره أيضا قريبة ممن عصاه ، وهو كسابقه يفتح للإنسان باب الاعتدال في الرجاء والخوف ، فيكون بين ناظريه في أعماله وطاعاته قرب الجنة وقرب النار ، فِعله للطاعة وتركه للمعصية يقربه من الجنة ، وتركه للطاعة وفعله للمعصية يقربه من النار ، وهو لا يريد النار وإنما يريد الجنة فيحدُث عنده توازن ؛ رجاء وخوف يمضي به بإذن الله تبارك وتعالى إلى سديد الأقوال وصالح الأعمال .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقِهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ)) ، وقال : ((دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لاَ هِيَ

أَطْعَمَتْهَا وَلاَ هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ)) ، **قال الزهري : «لئلا يتَّكل أحد ولا ييأس أحد» أخرجاه .**

****

ساق رحمه الله هذين الحديثين لبيان ما سبق وهو أن يكون الإنسان في أعماله معتدلًا متوازنا في رجائه وخوفه ، وعقاب الله عز وجل قريب ، قد يفعل أمرًا لا يُلقي له بالًا يهوي به في النار سبعين خريفًا ، وقد يعمل شيئا من أعمال البر يراه الناس قليلًا وهيِّنا يصدُق فيه مع الله ويخلص فيه لله تبارك وتعالى فيرتفع به في عالي الدرجات في جنات النعيم، فالرجاء بابه مفتوح وواسع ، وأيضا العقوبة سبيلها كبيرٌ وواسع ، وأمورٌ يسيرة تدني الإنسان من الثواب وعالي الدرجات ، وأمورٌ أيضا يسيرة من السيئات قد يبلغ بها مبلغا عظيما في نيل العقوبة ، ولهذا ينبغي للعبد أن ينظر في هذه الأحاديث ؛ الأحاديث التي تحرك الرجاء في القلب والأحاديث التي تحرك الخوف في القلب .

أورد أولا حديث أبي هريرة ((**أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا**)) يعني كانت ترتكب البغي وهو الحرام والفاحشة ((**رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ**)) رأت كلبًا بهذه الصفة في يوم حار يعني يوم صائف واشتد به العطش وكان عند بئر ولا يتمكن أن ينزل للبئر ليشرب ، فيطوف حول البئر يريد الماء وأدلع لسانه من شدة العطش ، فوقع في قلبها رحمة له ، رحِمت هذا الكلب وقع في قلبها رحمةً له ((**فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقِهَا**)) يعني خفها الذي في قدمها ، ونزلت في البئر وملئت موقها ، وأمسكت بموقها في الغالب في فمها ، وأخذت بيديها تصعد من هذا البئر، كل هذا العمل لا يعلم به إلا الله عز وجل ، هي لم تقم به ليراها إنسان فيمدحها ويقول مثلا شهمة أو مثلا صادقة أو شيء من هذه الألقاب ، هي لم تفعل ذلك إلا رحمةً بهذه البهيمة وصدقًا مع الله سبحانه وتعالى وطلبًا لثوابه عز وجل . لا يقبل الله عز وجل أي عمل من الأعمال إلا إذا كان قُصِد به التقرب إلى الله ، يعني هذه المرأة لو أنها كانت قامت بهذا العمل من أجل أن ناسًا حولها يمدحونها على هذا العمل لم يكن عملا صالحا .

ولهذا نبه العلماء أن هذه المرأة لما قام في قلبها من الصدق والإخلاص والنصح والرحمة فباشرت بسبب ذلك هذا العمل نالت هذا الثواب العظيم، ولهذا قال العلماء عند هذا الحديث : فيه دلالة على فضل التوحيد والإخلاص في عظم الثواب وكبر الثواب ؛ فهذه امرأة لما قام في قلبها من التوحيد والصدق والإخلاص لله سبحانه وتعالى ونزلت في هذا البئر صادقةً مخلصةً لله عز وجل غُفر لها ، وإلا كم من إنسان يعمل أمور أعظم من ذلك ولكن لا يقوم فيه من الإخلاص والصدق مع الله فلا ينال هذا الثواب . فالحديث من الدلائل العظيمة على أهمية الإخلاص والصدق مع الله جل وعلا ، وأن العمل القليل يعظم بالتوحيد والإخلاص ، ولهذا قال العلماء: قليل العمل بالتوحيد خيرٌ من كثير العمل بغير التوحيد أو بالرياء أو بالسمعة. قليل من العمل بتوحيد وإخلاص مع الله

سبحانه وتعالى خير للإنسان من عمل كثير بلا توحيد ولا إخلاص لله جل وعلا ، فهذه المرأة فازت بهذا الثواب العظيم قال: ((**فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**)) .

الحديث الثاني قال : ((**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا**)) يعني جاءت بها عندها في حجرة وأغلقت باب الحجرة ونافذتها ولم يصبح لهذه الهرة مكان تخرج منه حتى تأكل من خشاش الأرض الفئران وغيرها من الحشرات ، ولا هي أيضا جلبت لها طعاما في هذه الحجرة تأكل منه ؛ فبقيت الهرة محبوسة مغلق عليها الباب تريد طعامًا ، وماتت وهي على هذه الحال .

الحديث الأول يدل على رحمة القلب ولينه وما فيه من الشفقة والعطف والإحسان، وهذا الحديث يدل على غلظة القلب وقسوته وشدته وعدم رحمته ، تأتي بهذا الحيوان وتجعله في حجرة وتغلق الباب عليه ثم يبقى في جوع إلى أن يموت!! هذا يدل على قسوة في القلب وغلظة وشدة .

فيقول هنا : ((**دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**))؛ عندما تقرأ هذا الحديث والحديث الذي قبله يعرِّفك بالله سبحانه وتعالى ويزيل عنك ما يقع فيه كثير من الناس من خلل في هذا الباب ؛ إما برجاء عندهم لا خوف معه ، أو خوفٍ لا رجاء معه؛ وهذا كله خطأ ، بل الحق هو التوازن .

في باب الأعمال الصالحة لا تستهن بأي عمل ، اصدق مع الله في أي عمل صالح يرضاه عنك سبحانه وتعالى وشرعه لك ، اصدق مع الله فيه وإن كان في عينك أو في أعين الناس يعتبر عملًا زهيدا أو عملا قليلا أو عملا يُظن أن ليس له ثوابا عظيما دعك من هذا التفكير ، العمل الصالح وإن قَل اصدق مع الله فيه ، قد يكون عملا صالحا تفعله مرة تراه يسيرًا سبب لغفران ذنوبك ، جاء في صحيح مسلم أن رجلًا مر بطريق ووجد في الطريق غصن شجرة ذا شوك فقال : «والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم» فنحَّاه عن الطريق ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة. إزالة هذا الغصن من الطريق قد يُزال لسببٍ آخر ، يمشي الإنسان في طريق ويرى غصن شوك وأناسٌ بعيدون يقول أنا أحمل هذا الغصن حتى يروني ويقولون فلان يُحسن ، ما أصبح عملا تقرب به صاحبه إلى الله ، أو مثلا يقول "هذا حتى لا أقع فيه" يصبح عملا خاصا به هو ، لكن نظر هذا ما قام في قلبه من إحسان للناس قال «والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم» ، ففي قلبه رحمة وإحسان ولطف كبير في حق الناس فأماط عنهم الأذى من طريقهم ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة . إذًا في باب الأعمال الصالحة لا يتقالّ الإنسان عملا ((ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق)) صادقًا مع الله في جنب المودة بين المسلمين والمحبة تلق أخاك بوجه طليق قد ترتفع بهذا درجات عالية ، ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا)) ، ((الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا)) ، فلا يستهين الإنسان بعمل .

فهذا الحديث يفتح لك بابا عظيما في باب الرجاء حتى في الأعمال الزهيدة القليلة التي تُرى في عين الناس أنها قليلة وأن ثوابها قد يكون قليل جدًا ما يدريك ، قد يكون هذا العمل بصدقك مع الله ونصحك لعباد الله سبب لغفران ذنوبك ورفعة درجاتك عند الله عز وجل وعتقك من النار ودخولك الجنة .

وعندما تأتي للحديث الآخر؛ هذه دخلت الجنة بكلب ، وهذه دخلت النار بهرة ، فكلبٌ دخلت به امرأة الجنة وهرة دخلت بها النار ؛ فلا يستهين الإنسان بأعماله ؛ هذه عاملت الهرة بإساءة فكانت إساءتها سببًا لدخولها النار، فهذا أيضا ينبهك أنك لا تستهين بمعصية ، لا يقول الإنسان وماذا يعني هرة وهلكت وماتت وماذا يكون! لا يستهين الإنسان بمعصية ، قد يتحاقر الإنسان عمل ويراه في عينه حقيرًا وهو مثل الجبال في خطورته عليه، ثم يمضي في حياته مستهينا بالذنوب حتى يصبح حاله مثل حال المنافق والعياذ بالله ، وقد جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا)) يفعل الذنب تلو الآخر ولا يبالي ولا يكترث.

فعلى كل حال هذا الحديث من الأحاديث العظيمة في باب التعريف بالله عز وجل وما أعده من ثواب وما أعده من عقاب ، وأن ثواب الله قريب من الإنسان ، وجنته قريبة من الإنسان ، ما شاء الله هذه المرأة كانت في عمل فاسد وكتب الله لها هذه الخاتمة الطيبة من الصدق مع الله والنصح لمخلوقاته جل وعلا والرحمة والشفقة ونحو هذه المعاني التي قامت في قلبها ؛ فكانت سببًا لغفران ذنوبها . كم يتساءل كثير من التائبين : عندي ذنوب كثيرة وربما يستولي عليه شيء من القنوط بكثرة ذنوبه "عندي ذنوب فعلت كذا وفعلت كذا وما تركت كذا إلا.." انظر هذا العمل انظر إلى الأعمال الصالحة التي هي أكبر منه والطاعات المقربة إلى الله فهذه ترفع عن الإنسان القنوط. والجانب الآخر أو الحديث الآخر أيضا يفتح لك بابًا عظيما في الخير وهو أيضا أن تكون دائما خائفًا من عذاب الله .

إذًا حديث الكلب يقوي فيك الرجاء ، وحديث الهرة يقوي فيك الخوف ، وأنت مطلوب منك هذا ومطلوب منك هذا ، حديث الكلب هذا يقوي فيك جانب الرجاء ، وحديث الهرة هذا يقوي فيك جانب الخوف ، وينبغي أن تمشي في الأمرين معًا خوف ورجاء ؛ ترجو رحمة الله سبحانه وتعالى وتخاف عذابه . وإياك أن يكون تعبُّدك لله بواحد من هذين دون الآخر ، يعني بالرجاء دون الخوف أو بالخوف دون الرجاء ؛ فهذا يحرفك عن الإيمان الصحيح والمعتقد الحق ، ولهذا قال من قال من العلماء : «من عبَد الله بالحب وحده -يعني بدون رجاء وبدون خوف- فهذا زنديق ، ومن عبَد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبَده بالخوف وحده فهو حروري يعني من الخوارج ، ومن عبد الله بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحِّد» الذي يجمع بين هذه الأمور الثلاثة الحب والرجاء والخوف .

والعلماء رحمهم الله يسمونه هذه الأمور الثلاثة «أركان التعبد القلبية»؛ بمعنى أن كل عبادة تتقرب بها إلى الله عز وجل يجب أن تقيمها على هذه الأركان؛ تعبد الله رجاءً لثوابه وخوفا من عقابه وحبًا له جل وعلا ، كل عبادة تصلي تصوم تتصدق أي عبادة تقوم بها تقيمها على هذه الأركان : الرجاء للثواب ، والخوف من العقاب ، وحب الله سبحانه وتعالى .

وقد جُمعت هذه الأركان الثلاثة كما نبه على ذلك المصنف في بعض رسائله جمعت في فاتحة الكتاب ؛ ففي قولك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الحب ، لأن الحمد: هو الثناء مع الحب ، فإذا قلت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مستحضرًا ما يُحمد عليه سبحانه وتعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلا والنعم التي لا تعد ولا تحصى تحرك في قلبك جانب الحب . فإذا قلت ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وتدبرت هذا الاسم وما يدل عليه ما الذي يتحرك في قلبك؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]، ثم إذا أتيت إلى الآية التي بعدها ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وتفكرت أيضا في هذا الأمر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار:١٧-١٩] ما الذي يحصل لك؟ تخاف . فإذًا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تحرك الحب ، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تحرك الرجاء، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تحرك الخوف؛ بهذه الثلاثة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، ولهذا قال رحمه الله «فجاء قوله إياك نعبد بعد هذه الثلاثة» والمعنى: إياك نعبد أي نخصك يا الله بالعبادة بالحب الذي دل عليه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وبالرجاء الذي دل عليه ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وبالخوف الذي دل عليه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وهذه السورة المتكرر قراءتها للمسلم في صلواته المفروضة وفي نوافله أيضا تُحدث له التوازن في هذا الباب؛ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه رحمة وفيه يوم دين يوم حساب وعقاب وجزاء ، وكل هذا الأمر لابد أن يستحضره المسلم حتى يكون على توازن في معرفته بربه سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعنه مرفوعاً : ((عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاَسِلِ)) رواه أحمد والبخاري.

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ((**عنه**)) أي عن أبي هريرة رضي الله عنه ((**مرفوعًا**)) إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاَسِلِ**)) ؛ فهذا أيضًا من الأحاديث التي تفتح للعبد بابًا في معرفة الله سبحانه وتعالى ، وأن الأمر بيده سبحانه وتعالى ؛ أمر الهداية والصلاح وأمر الضلال كل ذلك بيد الله

كما قال عز وجل: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨] ، فالهداية بيد الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى إذا كتب لعبده هدايةً يسَّرها له ، فبعض عباده يكتب له سبحانه وتعالى هدايةً ينشرح صدره للخير يشرح صدره للإسلام ويُقبل عليه ويتقوى ويتمكن منه ، وآخرون يكتب لهم هدايةً ولا تكون هدايتهم بقوة الأولين وإنما هداية يُقادون فيها إلى الهداية بالسلاسل ، فيكونون مهتدين قودًا إلى الهداية ، وآخرين يكونون مهتدين منشرحة صدورهم إلى الهداية مقبلة عليها والأمر بيد الله ، وآخرون لا تكتب لهم هداية ؛ فهذا يجعل الإنسان يُقبل على الله ويعرف الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ، وأن هذا الخلق بتدبيره وتيسيره سبحانه وتعالى ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ؛ فهذا يفتح للإنسان باب عظيم في معرفة الله .

قال : ((**عَجِبَ رَبُّنَا**)) وهذا فيه إثبات هذه الصفة لله سبحانه وتعالى التي وصفه بها رسوله عليه الصلاة والسلام .

وفي قراءة في القرآن الكريم ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢] وعلى هذه القراءة تكون هذ الصفة ثبتت في القرآن الكريم ، وأما في السنة فقد ثبتت في أحاديث كثيرة جدا ؛ ((عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ)) ، ((عجب ربكم إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة)) ، أحاديث في هذا المعنى كثيرة جدا فيها إثبات العجب صفة لله تبارك وتعالى .

والقاعدة في هذا الباب عند أهل السنة والجماعة : أن ما أثبته الله جل وعلا لنفسه وما أثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام يُمرُّ كما جاء ويُؤمن به كما ورد ، لا يُتلقى بتحريفٍ باطل ولا أيضا يتلقى بتشبيهٍ فاسد ، بل يُثبت لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ؛ ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه نفي التمثيل ، وفي قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإثبات لما أثبته الله سبحانه وتعالى من الصفات الكاملة والنعوت العظيمة التي أضافها سبحانه وتعالى لنفسه .

فنثبت ما ثبت لله عز وجل من صفة في هذا الحديث بإثبات الرسول عليه الصلاة والسلام لها ، فمن إيماننا بالله ومن معرفتنا به سبحانه وتعالى أن نؤمن بأنه يعجب كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا الحديث وفي أحاديث أخرى أخبر عليه الصلاة والسلام أمور يعجب منها الله سبحانه وتعالى ، وعجبه ليس كعجب المخلوق ، المخلوق قد عجب من شيء لكونه لا يعلمه ، أو لكونه لا يدرك أبعاده ، أو لحصوله على خلاف ما يتوقعه ، أو لغير ذلك من الأسباب ، وهذه كلها لوازم لعجب المخلوق ، ولا يجوز بحال أن يُجعل لازم الصفة باعتبار إضافتها إلى المخلوق لازمًا للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق ، بل صفات الله سبحانه وتعالى تخصه وتليق بجلاله وكماله سبحانه ، وصفات المخلوق تخص المخلوق وتليق بضعفه وعجزه وكونه مخلوقًا ، وما أضيف إلى الله سبحانه وتعالى من الصفات فلوازمها الكمال ، وما أضيف إلى المخلوق من الصفات فلوازمها النقص ، ولا يصح بحال أن يُجعل

لازم الصفة باعتبار إضافتها للمخلوق لازمًا للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق ؛ هذا كلام باطل ، بل الصفة التي تضاف إلى الله تخص الله جل وعلا وتليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى . فالعجب هنا صفة ثابتة لله وهي تضاف إليه عز وجل على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه .

قال هنا : ((**عَجِبَ رَبُّنَا**)) ، وأيضا قوله «عجب ربنا» فيه التنبيه على أن الأمور كلها بتسخيره لأنه هو الرب ربنا، فالرب هو المالك ، الرب هو الخالق ، الرب هو المتصرف ، الرب هو الذي بيده أزمة الأمور ، الرب الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، هذه كلها من معاني الربوبية ((**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاَسِلِ**)) .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((وَمَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يسْمَعُهُ مِنَ اللهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) رواه البخاري .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في باب التعريف بالله والإيمان به سبحانه وتعالى ؛ قال صلى الله عليه وسلم : ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يسْمَعُهُ مِنَ اللهِ)) عندكم رُسمت خطأ «ما أحدًا صَبَر على أذى» ، والألف التي بعد الدال تتبع الكلمة الثانية «أصبر» ، فالألف ليست لكلمة «أحد» وإنما للكلمة التي تليها .

((**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يسْمَعُهُ مِنَ اللهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**)) وهذا فيه معرفة الله عز وجل بهذه الصفة «الصبر» ، وأنه سبحانه وتعالى صبور جل وعلا ، والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر عن ربه جل وعلا بذلك ؛ ((**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ**)) ففيه أن الله عز وجل صبور ، فنحن نؤمن بهذا الوصف الذي وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ونعرف ربنا بذلك أنه سبحانه وتعالى صبور ، وأخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام على مثال على صبره سبحانه وتعالى ، ولهذا قال: ((**مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ ؛ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**)) ؛ دعوى الولد هذا قولٌ عظيم قول إدّ كبيرٌ جدا ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١] كلمة عظيمة جدًا في غاية الخطورة وفي غاية الكفر والضلال والإلحاد في حق الله سبحانه وتعالى أن يُدعى له الولد ، وهو جل وعلا يدعون له الولد ويصبر ، صبور ، ما أحد أصبر على الأذى منه ، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم!! فأنت ترى في الناس من هو ملحدٌ زنديقٌ كافرٌ عنيدٌ يحارب الله ويحارب أولياءه ويحارب دينه ولا يزال الله عز وجل يعافيه في صحته ويرزقه مالًا ، لا يهلكه فور إعلانه ما يعلن من الكفر والزندقة ؛ فهذا من صبره جل وعلا وأنه سبحانه وتعالى صبور .

فالواجب على المسلم أن يعرف ربه بما عرَّفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهذا يفتح للإنسان باب في هذه المسألة «مسألة المعرفة بالله» ؛ أن الإنسان إذا وقع في المعاصي ووقع في الآثام وفي الكفر وفي الإجرام ويرى نفسه لايزال ممتعًا ولا يزال يأتيه الرزق والمال ويوسَّع عليه في الرزق ليس هذا دليلٌ على مكانته عند الله ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر:١٥-١٧] يعني ليس الأمر كما تظنون ، قد يكون الإكرام بالتوسعة والصحة والعافية قد يكون هذا استدراج ، وكذلك قد يكون ما يصيب الإنسان من مرض أو سقم أو غير ذلك أو فقر ليس مهانةً للإنسان عند الله ، «كلا» يعني ليس الأمر كما تظنون ؛ يعني أن الإنسان إذا وسع عليه فيه المال والصحة والعافية هذا دليل على مكانته عند الله ، أو إذا ضُيِّق عليه في الرزق وأصيب بالفقر أو المرض هذا دليل على مهانته عند الله كلا ليس الأمر كذلك ، فالإنسان قد يوسع له في الرزق والعافية وهو ليس له مكانة، كافر معرض لكن الله عز وجل يمهله ، وإمهال الله له هذا من صبره سبحانه وتعالى؛ فهو صبور يمهل ولا يهمل، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] يمهلهم ولا يهملهم سبحانه وتعالى .

فإذًا هذا باب في المعرفة بالله جل وعلا ؛ إذا عرف الإنسان أن الله عز وجل يصبر على الأذى يسمعه فلا يكون متمادٍ في الأذى لأن هذا يكون صبر من الله عز وجل على الأذى الذي يسمعه من العبد ثم بعد ذلك يأتي هلاك العبد بغتة ، فلا يغتر الإنسان بأنه فعل أمورًا عظيمة أو آثامًا خطيرة وصحته باقية ، بعض الناس يغتر يرى صحته باقية ، يرى ماله باقيا ، يرى الخير عنده والنعمة متوالية .. فيظن أن الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها ليست مؤثرة ويقول في نفسه "لو كانت مؤثرة لأثرت في النعمة كان أخذ الله مني هذا الذي أعطاني ، فكونه لم يأخذ مني هذا دليل على أن هذه الأمور ليست مؤثرة" ؛ فهذا من الأشياء التي يخطئ فيها كثير من الناس فيتمادى في العصيان ، عندما يكون ممتعًا بصحة وعافية ونعمة ومال إلى آخره وفي الوقت نفسه لا يزال مستمرا في أخطائه ، فلينتبه العبد في معرفته بالله إلى هذا الحديث قول النبي : **((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ))** .

قال رحمه الله تعالى :

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى: يَا جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ ؛ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ)) .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث في التعريف بالله سبحانه وتعالى بهذه الصفة العظيمة وهي أنه يحب جل وعلا، كما قال عن نفسه في القرآن: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤] ، فهذه صفة ثابتة لله ثبتت في القرآن وثبتت في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فمما يجب على المسلم أن يعرف ربه به أنه يحب جل وعلا ؛ يحب أنبياءه ، يحب أولياءه ، يحب طاعته ، يحب الطائعين من عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:٢٢٢] ، فالمسلم عليه أن يعرف هذه الصفة، يعرف أن الله عز وجل يحب ، ويعرف أنه يحب الطاعة ويبغض المعصية ويكره الكفر ولا يرضى لعباده الكفر ، وإذا عرف ذلك يجاهد نفسه في معرفة الأمور التي ينال بها محبة الله جل وعلا . والله وضع لنا في القرآن ميزانًا في هذا الباب ، قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١] يحببكم الله متى ؟ مرتبطة بقوله «اتبعوني» ، بمعنى: كلما عظمت متابعتكم للرسول عليه الصلاة والسلام وائتساؤكم به واقتداؤكم بهديه عظم نصيبكم وحظكم من محبة الله لكم .

فمحبة الله للعبد لا ينالها العبد بمجرد ادعائه ، اليهود إخوان القردة والخنازير أحقر عباد الله وأخسهم وأشرهم وأعظمهم بغيًا وظلما وعدوانا يقولون «نحن أبناء الله وأحباؤه» ، إذا كان هؤلاء إخوان القردة والخنازير يقولون هذه المقالة «نحن أبناء الله وأحباؤه» ؛ هذا يدلنا على أن الدعوى هذه سهلة على اللسان ، سهل على لسان أي إنسان أن يقول الله يحبني أو نحن أحباء الله ، هذه من أسهل ما يكون ، سهلة وكثير من الناس خفيفة على لسانه ، وربما ربط محبة الله له بأمور معينة ، دولة من الدول الكافرة مشهورة بالفوز في لعب كرة القدم ، فالشعب هناك يقولون كما ذكر لي بعض الإخوة يقولون "نحن الله عز وجل يحبنا بدليل أننا دائما ننتصر في كرة القدم" ، الدعوى هذه سهلة جدا على اللسان ، يقول "الله يحبني بدليل أنا كذا ، الله يحبني بدليل أعطاني كذا" هذه سهلة جدا . ولهذا ابن كثير رحمة الله عليه نقل كلمة جميلة جدا رائعة لأحد السلف في تفسيره لهذه الآية، قال أحد السلف: «ليس الشأن أن تحِب ولكن الشأن أن تُحَب» ، يعني ليس الشأن في هذا الأمر أن تدعي أن الله يحبك ، لكن الشأن أن يحبك الله فعلا ، فانتبه بماذا تنال محبة الله لك . ولهذا أيضا قال ابن كثير رحمه الله : أن هذه الآية تدل على أن من ادَّعى محبة الله دون لزوم الشرع المحمدي والنهج النبوي بأن دعواه كاذبة ، ونقل عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : «زعم قوم أنهم يحبون الله حبًا شديدا فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾» ، ولهذا أيضا يسمي العلماء هذه الآية «آية المحنة» ، بمعنى: من أراد أن يمتحن نفسه في هذا الباب فليمتحن نفسه على ضوء هذه الآية ؛ ينظر قدر الاتباع عنده للرسول عليه الصلاة والسلام فهو المقياس الذي يظهر به هذا الأمر والميزان الدقيق الذي يتبين به هذا الأمر .

فمما يجب على المسلم أن يعرف به ربه أن ربه يحب ، ويجتهد أيضا في معرفة الأعمال التي يحبها سبحانه وتعالى من عباده ويرضاها عنهم حتى يجتهد في تطبيقها والقيام بها لينال بذلك محبة الله عز وجل .

فإذا أحبه الله اسمع ما في الحديث قال : ((**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى يَا جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ**)) يعني فأحبَّه يا جبريل ((**فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ**)) لا إله إلا الله **!** انظر هذا الخير العظيم إذا أخلص العبد مع الله وصدق وأقبل على الأعمال الصالحة بينه وبين الله صادقًا مع الله عز وجل وأحبه الله جل وعلا لإقباله وصدقه ونصحه وإخلاصه وجدِّه واجتهاده وتقربه إلى الله ؛ إذا أحبه الله نادى رب العالمين جبريل «إني أحب فلانا» ، رب العالمين يقول لجبريل «إني أحب فلانا» ، ما أعظم مكانة من فاز بهذا الأمر ، ما أعظم مكانته أن يقول رب العالمين وخالق هذا الخلق سبحانه وتعالى إني أحب فلانا يسميه باسمه ، رب العالمين يسميه لجبريل باسمه يقول «إني أحب فلانا فأحبه» يأمر سبحانه وتعالى جبريل أن يحبه ، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في أهل السماء : «إن الله يحب فلانا فأحبوه» فيحبه أهل السماء ، مر معنا قريبا ((أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله سبحانه وتعالى)) ، كل هؤلاء بالآلاف بالملايين كلهم يحبونه ، يحبونه باسمه بشخصه ، أحبه الله ونادى جبريل أن يحبه فأحبه جبريل ونادى جبريل أهل السماء أحبوا فلانا؛ فأحبه أهل السماء، ويُطرح له القبول في الأرض ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] أي مودة في قلوب الخلق .

فهذه الأمور : محبة الله لعبده ، ومحبة أهل السماء له ، والقبول الذي يطرح له في الأرض لا ينال بالدعاوى ولا ينال بالتظاهر ، لا يُنال إلا بشيء بين الإنسان وبين الله ؛ صدق مع الله وإخلاص لله وإقبال على الله، فهذا مما يجب أن يعرف الإنسان به ربه سبحانه وتعالى، أنه لا يفوز ولا يربح ولا يغنم ولا ينال سعادةً وطمأنينةً وقبولا وراحة في الدنيا والآخرة إلا بشيء بينه وبين الله يصدق فيه مع الله سبحانه وتعالى ويخلص فيه لله جل وعلا ، والأمور بيده سبحانه وتعالى ، فإذا أحب الله عبده لصدق العبد ونصحه وإقباله وجده واجتهاده نادى جبريل «أحب فلان» ، ينادي جبريل باسم الشخص أحب فلانا يذكره باسمه ، وجبريل يحبه وينادي أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ؛ فيحبه أهل السماء ثم يطرح له القبول في الأرض . فهذا الأمر الذي هو محبة الله لعبده وثبوت المحبة صفةً له لا تُنال بمجرد الدعاوى ، الدعاوى رخيصة جدًا قالها كما قدمت لكم إخوان القردة والخنازير ، من لعنهم الله وجعل منهم القردة والخنازير هؤلاء منهم أخبر الله عنهم أنهم يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، فالكلمة رخيصة على اللسان سهلة على اللسان ، مجرد الدعوى لا يحظى الإنسان بمكانة ، لكن الذي يحظى بها شيء بينه وبين الله يصدق مع الله فيه .

فهذا الحديث يفتح لك بابًا في معرفة الله ، وأهمية الصدق معه والإخلاص له وحُسن الإقبال عليه ، وأن يكون الإنسان بينه وبين الله أعمال يكسب بها قربه وثوابه ونيل أجره ورحمته والنجاة من عذابه سبحانه وتعالى ، بمثل هذا ترتفع درجات العبد وتعلو منازله عند الله سبحانه وتعالى .

والله تعالى أعلم . وصلى الله وسلم على رسول الله .

الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، واجعل ما نتعلمه حجة لنا لا علينا ، اللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا .

ونواصل مستعينين بالله عز وجل القراءة في هذا الكتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ : ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا)) ، ثم قرأ : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠] . **رواه الجماعة .**

****

أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث حديث جرير بن عبدالله البجلي في باب معرفة الله عز وجل والإيمان به ؛ ففيه الدلالة على أن مما ينبغي أن يعرف به المؤمنون ربهم سبحانه وتعالى أنه جل وعلا يكرم أهل الإيمان وأهل الطاعة والعبادة والإحسان بأعظم كرامة وأجلِّ منة وأعظم عطيةٍ؛ ألا وهي رؤيتهم لمن خلقهم وأوجدهم سبحانه وتعالى ، فهذه أكبر المنن وأعظم العطايا ، ولهذا جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ)) بعد أن يأخذ أهل الجنة في نعيمها ويسعدون بما جعل الله سبحانه وتعالى لهم فيها من أنواع النعم والمنن والعطايا والأفضال يسألهم الله جل وعلا ((تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟))

فَيَقُولُونَ: «أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا! أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ! وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ» ، ((فَيُكْشَفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ)) رواه مسلم في صحيحه ؛ فهذا يدل على أن هذه النعمة هي أعظم النعم ، كرامة الله عز وجل لأهل الإيمان ومنَّته عليهم سبحانه وتعالى بأن يكرمهم يوم القيامة بالنظر إلى خالقهم الجليل العظيم سبحانه وتعالى ينظرون إليه ، وهذا نظر إكرام وإنعام ويحصل لهم بهذا النظر نضرة في وجوههم وهو حُسن وبهاء وجمال وزينة ،كما قال الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣] ؛ «ناضرة»: أي حسنة بهية جميلة مضيئة مشرقة ، «إلى ربها ناظرة» : أي تنظر إلى الله سبحانه وتعالى بأبصارها يوم القيامة ، قال بعض السلف كلاما معناه :كيف لا تكون ناضرةً وهي تنظر إلى الله!! الإنسان في نظرته لأشياء يسيرة جدًا في الحياة الدنيا من المناظر الجميلة أشجار أو نحو ذلك تجلب لقلبه شيء من البهجة والراحة في أمور يسيرة جدا فكيف إذا كان نظر الإنسان إلى النعيم الذي في الجنة!! وكيف إذا كان النظر الإنسان إلى الرب العظيم!! جل جلاله سبحانه ، فهذه أكبر النعم أكبر النعم التي ينالها أهل الإيمان يوم القيامة أن ينظر أهل الإيمان في الجنة إلى من خلقهم وأوجدهم سبحانه وتعالى؛ ينظرون إلى جلاله وجماله وكماله جل وعز ، فهذه أكبر العطايا .

فالمصنف رحمه الله ساق هذا الحديث العظيم ليبين أن مما ينبغي أن يُعرف به الرب سبحانه وتعالى الخالق لهذا الكون الموجِد لهذه المخلوقات أن أهل الإيمان سيرونه يوم القيامة ، وهذه خاصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم ، خاصةٌ بهم يرون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة رؤية إنعام وإكرام وفضل ومنٍّ ، ويترتب عليها من الخير العائد لهم ما لا يخطر لهم ببال ؛ من نضرة الوجوه ، وقرة العيون ، وسرور القلوب ، وأنس الخواطر ، وتوالي الخيرات ، إلى غير ذلك من أمور عظيمة ينالها أهل الإيمان .

فنبينا عليه الصلاة والسلام يخبر بهذا الأمر في هذا الحديث فيقول: ((**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ**)) أي يا أهل الإيمان ((**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَر**)) وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام نظر إلى القمر في ليالي الإبدار في منتصف الشهر ، نظر إلى القمر وهو مكتمل في السماء كلٌ يراه مكتملا فقال عليه الصلاة والسلام وهو ينظر إليه : ((إنكم سترون الله جل وعلا كما ترون هذا القمر)) .

والكاف هنا في قوله ((**كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَر**)) ليست تشبيهًا للمرئي بالمرئي ، وإنما تشبيهًا للرؤية بالرؤية ، أي كما أنكم ترون القمر رؤيةً حقيقية بأبصاركم فإنكم سترون الله سبحانه وتعالى ، كما أن رؤيتكم للقمر رؤية حقيقية ترونه من فوقكم رؤية حقيقية الكل يراه الكل ينظر إليه لا يحتاج أن ينضم بعضكم إلى بعض من أجل النظر لدقته أو لخفائه أو لبُعده وإنما الكل يراه ؛ فالتشبيه هنا للرؤية بالرؤية ؛ أي أنها رؤية حقيقية بالأبصار كما أنكم ترون القمر من فوقكم رؤيةً حقيقية بالأبصار، هذ معنى قوله ((كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَر ليلة البدر)) ليلة البدر هي ليلة التمام .

وفي بعض ألفاظ الحديث ((إنكم سترون ربكم يوم القيامة)) فهذه الرؤية ليست حاصلة لأحد إلا في يوم القيامة ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((اعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا)) ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام هل رأى ربه عندما عُرج به إلى السماء؟ قال ((نورٌ أنى أراه)) فهو عليه الصلاة والسلام لم ير الله جل وعلا عندما عُرج به إلى السماء ، والرؤية رؤية الله عز وجل في الدنيا ليست حاصلة لأحد ولم يجعل الله عز وجل للناس قدرة على هذه الرؤية، لكنه يوم القيامة سبحانه وتعالى يجعل لهم من القدرة والقوة على النظر له جل وعلا .

قال : ((**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَر لَا تَضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**)) ، ((لَا تَضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ)) ، ((لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ)) رواياتٌ وألفاظ وردت في هذا الحديث وكلها دالة على معاني صحيحة ، ((لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ)) أي لا يحصل لكم ضيم في الرؤية بل الكل يحصل له الرؤية بدون عنت وبدون مشقة ، ((وَلَا تَضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ)) أي لا يحصل لكم تضار بسبب تزاحم الناس أو تدافعهم لرؤية أمر معين ، ((لَا تَضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ)) أي لا يحتاج أن ينضم بعضكم إلى بعض من أجل الرؤية ، وعادة عندما يريد الناس النظر إلى شيء يكون دقيقًا يجتمعون حتى يحدِّدوا أو يستطيعوا النظر أو الرؤية ، فكل هذا لا وجود له فسترون الله سبحانه وتعالى رؤية حقيقية بأبصاركم، وأكد هذا المعنى بعدة مؤكدات صلوات الاله وسلامه عليه ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَر ليلة البدر لَا تَضَامُّونَ ، أو لَا تَضَارُّونَ، أو لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ)) .

وينبغي أن يُعلم هنا من سياق هذا الحديث ودلالة أحاديث ونصوص أخرى: أن رؤية الله عز وجل أعظم منال وأكرم نعمة وأفضل عطية ينالها أهل الإيمان ، وهذه العطية والمنة العظيمة الكبيرة لابد في العبد من أجل أن يحصِّلها وأن ينالها وأن يكون من أهلها لابد له من أمور تؤهله لهذه الرؤية ، فهي ليست حاصلة لكل أحد ، ولهذا هنا خاطب أهل الإيمان قال : ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ)) ، فليست كل الوجوه ستنظر ولهذا الله عز وجل قسَّم الوجوه في القرآن إلى وجهين يوم القيامة ، قال : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٥] نسأل الله العافية والسلامة ، فالوجوه يوم القيامة على وجهين :

١. وجه ناضر؛ يعني حسن بهي جميل يكرمه الله عز وجل بالنظر إليه .

٢. ووجوه عليها غبرة ترهقها قترة محجوبةٌ عن الله ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]

إذًا هناك أمور في الدنيا لابد أن يقوم بها العبد لتؤهله للرؤية وهي الإيمان وتحقيق طاعة الله عز وجل ، فالجنة التي أعظم إكرام وإنعام فيها رؤية الله لا يمكن أن يدخلها أحد إلا بالإيمان ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: ((لَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ)) ، فالإيمان لابد منه ، والأعمال الصالحة التي ترتفع بها درجات العبد وينال بها عالي المقامات ورفيع الدرجات لابد منها ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٩] ، ولهذا

سيأتي عند المصنف رحمه الله إيراد ما يدل على ذلك من السنة ؛ تفاوت أهل الجنة في نعيم الجنة ، وتفاوت الجنة في درجاتها لتفاوت أهل الإيمان في أعمال الإيمان وطاعاته تفاوتهم فيها في حياتهم الدنيا . فنبه النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا المعنى؛ نبه على الإيمان بقوله ((**إِنَّكُمْ**)) أي يا أهل الإيمان ((**سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يوم القيامة**)) ، ونبه على العمل والتقرب إلى الله عز وجل والمجاهدة مجاهدة النفس على ذلك ولاسيما وبخاصة الصلاة ، ولهذا قال هنا في هذا الحديث : ((**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا**)) .

وهنا رعاك الله لابد أن تنتبه إلى فائدة عظيمة وهي الارتباط بين العقيدة والعمل ، وثمرة العقيدة الصحيحة في حسن العمل ، فثمة ارتباط وثيق بينهما ؛ العقيدة الصحيحة الإيمان الصحيح الإيمان الراسخ يورث عملًا يحرك في القلب العمل والعناية بالعمل ، لما ذكر الرؤية التي هي أكمل نعيم وهي عقيدة يعتقدها أهل الإيمان ، أهل الإيمان يعتقدون من جملة عقائدهم أن اهل الإيمان يرون الله يوم القيامة ، فهذه العقيدة تثمر ماذا ؟ لا تثمر بطالة ، لا تثمر كسلا، لا تثمر فتورًا إنما تثمر جدًا واجتهادا ، تحرك في القلب شوقا لنيل هذه الرؤية وطمعًا فيها ، وهذا الشوق والطمع يحرك في النفس إقبالا على الأعمال وعلى الطاعات التي يُنال بها هذا الأمر العظيم ، فالعقيدة تثمر العمل وتحرك في القلب العمل ولهذا هنا قال : ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ)) هذه العقيدة ، العمل الذي يترتب عليها وتتطلبه ما جاء في آخر الحديث في قوله ((فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ)) ، فثمة ترابط وثيق بين العقيدة والعمل، العقيدة تثمر العمل الصحيح تثمر الخلق الفاضل والجد والاجتهاد في التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، وكأن الحديث يشار فيه إلى سامعه يقال له : يا من عرفت أن أهل الإيمان يرون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ويكرمهم بهذه الرؤية فاجتهد أن تكون من هؤلاء بتقديم العمل والطاعة ، واحذر أن تفرط في الصلاة ، لأن تفريطك في الصلاة وتضييعك لها حكمٌ على نفسك بالحرمان من هذا الأمر ، فالذي لا يصلي حكَم نفسه بالحرمان من هذا .

وينبغي يا إخوان أن نلحظ هذه الملاحظة وهي: أن هناك ارتباط وثيق بين الصلاة والرؤية ، الصلاة على وجه الخصوص ولاسيما المكتوبة ، بين الصلاة ورؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة رابطة وثيقة تراها جلية واضحة في كثير من النصوص ، والصلاة سميت صلاة لأنها تصل العبد بالله تبارك وتعالى ، وهي أيضا توصل العبد إلى رؤية الله يوم القيامة ، وانظر هذه الرابطة في نصوص كثيرة منها هذا النص الذي بين يديك الآن؛ ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ)) يعني لا يغلبكم على الصلاة أي غالب، لأنه إذا غلب الإنسان على صلاته حصل له بذلك الحرمان ، حرم نفسه ((فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا)) يعني كأنه يقال إن كنت تريد ولا أحد يأبى ذلك لنفسه إن كنت تريد لنفسك ذلك فحافظ على الصلاة ؛ هذا معنى الحديث ومدلوله .

ففي الحديث ارتباط بين الصلاة والرؤية ، انظر هذا الارتباط في القرآن الكريم بين الصلاة والرؤية ، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] هذا القِسم من الوجوه الذي يكرمهم الله سبحانه وتعالى بالرؤية .

انظر إلى القسم الآخر الذي يُحجب ويُمنع ويُحرم ما هي صفاته ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة:٢٤-٣١] هذه من موجبات الحرمان ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ هذا القسم الذي لا ينظر إلى الله سبحانه وتعالى ، من القسم الذين قال عنهم في سورة أخرى في آية أخرى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ [المطففين:١٥-١٦] ، فمن أعمالهم التي استحقوا بها ذلك ما ذكره الله هنا ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ . إذًا المفهوم هنا أن أولئك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ من أهل الصلاة ، والصلاة هي التي أوصلتهم وغيرها من الطاعات أوصلتهم إلى هذا الثواب العظيم .

فالرؤية مرتبطة بالصلاة ولهذا جاء في حديث عمار بن ياسر في سنن النسائي وغيره بسند ثابت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو في صلاته ((اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي)) إلى قوله في هذا الدعاء ((وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ)) ، ولاحظ أيضا الارتباط بين الصلاة والرؤية في هذا الحديث ؛ فنبينا عليه الصلاة والسلام في الصلاة التي هي من أعظم موجبات نبل الرؤية يسأل الله عز وجل لذة النظر قال : ((أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)) لذة النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى هي أعظم لذة وليس في اللذات لذة تدانيها أو تقاربها ، أعظم لذة على الإطلاق هي لذة النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى ، فيقول هنا ((أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)) ولذة النظر غاية ، والشوق إلى لقائه وسيلة لنيل هذه الغاية ، وقدَّم الغاية لعظمها وفخامتها ، ((أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ)) هناك شوق في القلب يحدو الإنسان يحركه يبعثه يدفعه إلى الأعمال والقربات إلى الله عز وجل حتى ينال هذا الفوز العظيم والنعيم المقيم .

قال: ((فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)) أي أسألك أن يكون نيلي لهذا الأمر في غير ضراء ولا فتنة ، قال العلماء: لا تكون الرؤية إلا بعد الموت كما تقدم الحديث بهذا ، والموت قد يطلبه الإنسان لنفسه لضراء أصابته ولهذا جاء في حديث آخر : ((لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ)) ، فقد يطلب الإنسان الموت لضراء

أصابته فيريد الموت للخلاص من هذه الضراء ، أو أيضا يصاب الناس في زمانه بفتن فيخشى على نفسه منها فيتمنى الموت خوفا من الفتن ، فهنا يحقق هذا الدعاء ويخلص هذا الدعاء أنه يسأل الله عز وجل النظر إليه ولذة النظر إليه شوقا إلى الله عز وجل ليس طلبا للموت فرارًا من مصيبة ألمت بالإنسان في الدنيا أو ضراء أصابته في الدنيا ، وليس أيضا فرارًا من فتنة، وإنما هو في شوق وفي طمع وفي لهف وفي رغبة تملأ جوانحه لرؤية الرب العظيم سبحانه وتعالى .

قال: ((وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ)) وهذا مما يوضح لكم الارتباط بين الإيمان طاعاته ، ومن طاعاته العظام الصلاة ، والصلاة إيمان ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] أي صلاتكم الصلاة إيمان ، فانظر الارتباط الذي أشير إليه أيضا فيما سبق .

حديثنا يقول فيه عليه الصلاة والسلام ، هنا لفتة لابد نقف عندها ، يقول ((**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا**)) قف هنا متأملا ودقق النظر وزد في التأمل في قوله عليه الصلاة والسلام «تُغلبوا» ماذا تستفيد منها ؟ ((فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا)) ماذا تستفيد من هذا البيان؟ يعني كأنه يقال لك : هذه الرؤية وهذه منزلتها وهذه مكانتها وهذه الصلاة هي أعظم ما تنال به الرؤية وانتبه في الدنيا أشياء كثيرة ستغلبك على الصلاة ، فانتبه أن تُغلب على صلاتك لا يغلبك على صلاتك أي شيء .

((**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا**)) ؛ الصلاة التي قبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر ، والصلاة التي قبل غروبها هي صلاة العصر ، ولهاتين الصلاتين في النصوص خصوصية عظيمة جدا ، وورد فيهما نصوص خاصة من ضمنها قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ)) الملائكة الذين يتعاقبون على الناس بالليل والنهار يجتمعون في هذين الصلاتين ((ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) لما جاءوا الفجر وجدوهم في صلاة ، ولما صعدوا العصر كانوا في صلاة ، والذين جاءوا بعدهم أيضا وجدوهم في صلاة لما أتوهم ، ولما صعدوا منهم كانوا أيضا في صلاة الفجر ، وهؤلاء الملائكة الذين يتعاقبون يرون عباد الله عندما ينزلون في صلاة وعندما يصعدون في صلاة ((تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) ، النائم على فراشه والمشتغل بأعماله واللاهي عن صلاته ليس داخل مع هؤلاء ، هذا يختص بالمصلين ((تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) ، الذي ينام عن صلاة الفجر محروم هذا والذي ينام عن بقية الصلوات أيضا محروم .

وقد تسأل هنا لماذا خصت هنا صلاة الفجر وصلاة العصر بالذكر؟ خصت هاتان الصلاتان بالذكر لأنهما أعظم الصلوات وفيهما من الفضائل والخصائص ما ليس لغيرهما ، فإذا حافظ عليهما العبد فإن هذا يدفعه إلى المحافظة

على ما سواهما ، وإذا ضيَّعهما العبد فهو لما سواهما أضيع من بقية الصلوات وغيرها من الطاعات ، وصلاة الفجر تأتي في مفتتح اليوم وباكورته وأوله ، فمن منَّ الله عز وجل عليه ولم يُغلب على صلاة الفجر وأحسن في صلاته كانت هذه الصلاة عونًا له على أداء بقية الصلوات ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾[العنكبوت:٤٥] فإذا استهل يومه بنشاط وهمة وتعوذ من الشيطان وذكر لله إقبال على صلاة الفجر سيكون أيضا بعون الله محافظا على بقية الصلوات ، فلأجل هذا خص هاتين الصلاتين بالذكر ، قال: ((فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا)) .

أيضا لمزيد الفقه في هذا الباب؛ لك أن تسأل ما هي الأمور التي تغلب الناس على صلاتهم؟ وهذا من الأمور المهمة التي ينبغي أن تنتبه لها ، ما هي الأمور التي تغلب الناس على صلاتهم؟ تعرفها حتى لا تغلبك على صلاتك ، ما هي الأمور التي تغلب الناس على صلاتهم؟ صلاة الفجر كثيرا ما يغلب الناس عليها ، تجد الأذان أذِّن والمنادي نادى «الصلاة خير من النوم» وهذا مستمر في نومه إلى طلوع الشمس ، اليوم وغدًا وبعد غد وهو على هذه الحال ، ما الذي غلبه هنا؟ غلبه النوم وما يسبق النوم من طول في السهر ، سهر في لهو وباطل ونوم عن فرائض ، يسهر في لهو وفي باطل وفي ضياع وينام عن فريضة كتبها الله سبحانه وتعالى عليه!! فأي حرمان أفظع من هذا ؟! أن يضيع ليله في لهو وباطل وأن يبتدأ نهاره بتضييع الفريضة ، فأي حرمان أفظع من هذا ؟ الليل يضيع في لهو وباطل! والنهار يفتتح بتضييع فريضة من فرائض الله سبحانه وتعالى التي كتبها جل وعلا على عباده !!.

أيضا يغلب الناس على صلاتهم: اللهو والإقبال على الدنيا والتكالب عليها وملأ القلب بها ؛ هذه أمور تغلب الناس على صلاتهم ، أصبح الآن من الناس من يغلبه على صلاته فنجان شاي ، بيده فنجان الشاي يصبه ؛ ماء حار في داخله ورق أحمر وينادى للصلاة فيجلس يشرب الشاي ما يريد أن يترك الشاي والصلاة يتركها !! أمور كثيرة الآن حتى أشياء من أتفه وأحقر الأمور تغلب الناس على صلاتهم ، وأصبح الصلاة في ميزان كثير من الناس لا قيمة لها، وقد قال بعض السلف رحمهم الله كلمة عظيمة جدا معناها : من أراد أن يعرف وزن الإسلام في قلبه فلينظر إلى وزن الصلاة عنده ، لأن حظك من الإسلام بحسب حظك من الصلاة ، ومن ضيع الصلاة فهو لما سواها أضيع ، ومن حافظ على الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام : ((كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ)) ، الصلاة نور تضيء للإنسان طريقه في هذه الحياة وبرهان على إيمانه وحسن صلته بربه سبحانه وتعالى ، ونجاة له يوم القيامة فيلقى الله عز وجل يوم القيامة مصليا مقبلا مطيعا لله جل وعلا .

قال : **((إنكم سترون ربكم يوم القيامة فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا))** ؛ قوله «فافعلوا» فيه تنبيه للمجاهدة ، مجاهدة النفس ومداومة جهادها على المحافظة

على الصلاة ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] . اللهم اجعلنا من المقيمين الصلاة ، ومُنَّ علينا يا ذا الجلال والإكرام بلذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

ثم قرأ : ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** ﴾ [طه:١٣٠] هذه الآية فيها إشارة إلى هاتين الصلاتين ؛ صلاة الفجر التي هي قبل طلوع الشمس ، وصلاة العصر التي هي قبل غروبها .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قبض نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، ولابد له منه)) رواه البخاري .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث العظيم في باب معرفة الله عز وجل والإيمان به ، والحديث يدل على أن مما ينبغي أن يعرف المؤمن به ربه سبحانه وتعالى أنه عز وجل يتولى أولياءه والصالحين من عباده بحفظه وكلاءته ورعايته سبحانه وتعالى ، يتولاهم بتوفيقه وتسديده وعونه ، يتولاهم بحفظه ونصره جل وعلا ؛ هو وليهم ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة:٢٥٧]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج:٣٨] ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧]. فأولياء الله والصالحين من عباده يبين هذا الحديث ما لهم من الفضل والتوفيق والحفظ والتسديد والمعونة من الله جل وعلا ، فهذا مما ينبغي أن يُعرف به الله جل وعلا ؛ فيُقبل العبد على الله عز وجل ويجاهد نفسه ليكون من أولياء الله .

وباب كون العبد من أولياء مفتوح لكل أحد ، لا يختص بجنس دون جنس أو لون دون لون أو نسب دون نسب لا يختص بأحد ، الباب مفتوح لكل أحد ؛ بمجاهدة النفس على تحقيق أمرين الإيمان بالله وتقواه ينال العبد الولاية ويكون من الأولياء ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢-٦٣] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «من كان مؤمنًا تقيا كان لله وليا» ، فبالتقوى والإيمان تنال ولاية الله عز وجل ، لا تنال الولاية بدعوى يدَّعيها الإنسان أو نوع لباس يتميز به الإنسان أو مظاهر يتظاهر بها أو نحو ذلك

لا تنال الولاية بهذا، وإنما تنال الولاية بشيء بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣].

واجتماع الإيمان والتقوى يدل على أمرين يلزم العبد لزومهما والمحافظة عليهما وهما: العناية بالأوامر فعلا ، والبعد عن الناهي والمحرمات وما نهى الله تبارك وتعالى عباده عنه . فالإيمان تعني فعل الأوامر والطاعات مع صلاح المعتقد، والتقوى تعني اجتناب المحرمات واتقائها والبعد عنها ، فمن كان بهذه الصفة نال هذه المنزلة العلية والرتبة الرفيعة .

والحديث هنا فيه بيان ما للأولياء من مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة عند رب العالمين وخالق الخلق سبحانه وتعالى ، ولهذا يقول الله عز وجل في بيان مكانة أوليائه ومنزلتهم قال : ((**إِنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**)) وهذا فيه أن من بارز أولياء الله بالعدوان والظلم والإساءة والاعتداء فقد آذنه الله جل وعلا بالحرب، ومن آذنه الله عز وجل بالحرب فقد تحقق هلاكه في دنياه وأخراه، لأنه سبحانه وتعالى بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض، عطاؤه كلام وعذابه كلام سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] .

((**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**)) أيضا يفهم من الحديث كما نبه العلماء أن من صافى الأولياء وأحبهم وعرف مكانتهم وقدرهم فقد فاز برضا الله سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى ما جاء في الحديث ((أَوْثَق عُرَى الْإِيمَانِ الحبّ فِي اللهِ، وَالبُغْض فِي اللهِ)) ، فمن أحبهم في الله سبحانه وتعالى فاز برضا الله سبحانه وتعالى ومن عادى أولياء الله وتلقاهم بالشنئان والبغض والعدوان والظلم ونحو ذلك فقد آذنه الله سبحانه وتعالى بالحرب ، قال ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)) .

ثم ذكر صفة الأولياء ،كأنه قيل : من هم الأولياء ، الله قال: ((من عادى لي وليا)) فكأنه قيل من هم الأولياء ما هي صفتهم ؟ فذكر جل وعلا في هذا الحديث القدسي أن أولياءه على درجتين وعلى مرتبتين:

- الدرجة الأولى بيّنها في قوله سبحانه وتعالى : ((**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**)) هذه مرتبة من مراتب الولاية: المحافظة على الفرائض ، حفظ الفرائض والمحافظة عليها والبعد عن المحرمات ما حرمه الله عز وجل لعباده ، وهذه الدرجة يسميها أهل العلم «درجة المقتصدين» وإليها الإشارة في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ [فاطر:٣٢] ، والمقتصد : هو الذي يحافظ على الفرائض ويترك المحرمات ؛ هذا ولي من أولياء الله، ويوم القيامة يدخله الله سبحانه وتعالى الجنة بدون حساب ولا عذاب ، من حافظ على الفرائض وترك المحرمات دخل الجنة يوم القيامة بلا حساب ولا عذاب .

والدرجة الثانية للأولياء وهي أرفع وأعلى وأسمى من هذه الدرجة إليها الإشارة هنا في هذا الحديث في قوله : **((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ))** هذه الدرجة الثانية وهي أعلى من الدرجة الأولى ، هذه الدرجة فيها ما في الدرجة الأولى وهو المحافظة على الفرائض وترك المحرمات وزيادة على ذلك بالعناية بالنوافل . وانتبه لقوله ((ولا يزال)) لأن هذه الكلمة كما يقول العلماء تفيد الاستمرار والمداومة ، ((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ)) يعني مستمرا مداوما محافظا على النوافل ، هذه الدرجة الثانية وهي أعلى وهي درجة المقربين أو قل أيضا «درجة السابقين بالخيرات» .

قال عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر:٣٢] وقد قال العلماء: المقتصد والسابق بالخيرات كلاهما يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب دخولا أوليا ، من كان محافظا على الفرائض مبتعدا عن المحرمات ، ومن كان أيضا محافظا عليها وإضافة إلى ذلك مسابقا في الرغائب والنوافل والمستحبات ؛ فهذان يدخلان الجنة بدون حساب ، ورتبتهما في الجنة ليست متساوية، السابقون لهم درجة عالية ، والمقتصدون لهم درجة دون ذلك ، ولهذا سيشير المصنف رحمه الله في الحديث الآتي إلى هذا المعنى بذكر الجنات التي في الجنة جنة المقربين وجنة المقتصدين ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] ، ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٦٢] يشير إلى هذا المعنى في الحديث القادم .

وإتيانه بالحديث القادم بعد حديث الولي في غاية المناسبة ؛ لأن حديث الولي ذكر أن أولياء الله عز وجل ... على كل أحد ، فهي لا تنال بمجرد الدعوى وإنما تنال بمجاهدة ولاحظ المجاهدة هنا ((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ)) يعني حتى ينال منزلة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى في المحبة ، وإلا فإن من يؤدي الفرائض ويترك المحرمات له نصيب وحظ من حب الله تبارك وتعالى له ، لكن الذي حافظ على النوافل نصيبه أوفر وحظه أعظم ، ولهذا قال: ((حتى أحبه)).

ثم انظر ماذا يترتب على حب الله عز وجل لوليه ؟ قال : ((حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ)) هذه ثمار وآثار **((فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ))** أي أنه سبحانه وتعالى يؤيده ويسدده في سمعه وفي بصره وفي قدمه وفي يده ويستجيب دعاءه ويكون محفوظا بحفظ الله سبحانه وتعالى له ، هذا معنى قوله كنت سمعه وكنت بصره وكنت يده وكنت قدمه ؛ أي أنه سبحانه وتعالى يسدده في سمعه وفي بصره وفي يده ، هذا معنى الحديث .

وقد أساء قوم أعظم إساءة عندما توهموا معنى فاسد في قوله «كنت سمعه» أي أن سمع الإنسان يصبح سمع الله وبصر الإنسان يصبح بصر الله إلى غير ذلك من الكلام الباطل الذي لا يقوله من عرف دين الله عز وجل ومن عرف الله سبحانه وتعالى ، والله جل وعلا ذكر في الحديث سائلًا ومعطيا ، عبدًا ومعبودا ، ربًا ومربوبا ، حافظًا

ومحفوظا ،كل هذه ذكرت مفصول بينها ، الله عز وجل بصفاته وهذا العبد بصفاته ، إذًا ما معنى ((كنت سمعه كنت بصره كنت..)) ؟ أي أن الله عز وجل يؤيده بسمعه وبصره وقدمه ويتولى حفظه سبحانه وتعالى ، ولهذا قال: ((بي يسمع وبي يبصر)) يعني بتأييد الله له وبعونه وبحفظه وتوفيقه سبحانه وتعالى له ، هذا معنى قوله ((كنت سمعه الذي يسمع به..)) إلى آخر الحديث .

وهنا انتبه رعاك الله إلى فائدة عظيمة جدًا تعالج مشكلة نراها ظاهرة في حياتنا جميعا ، وهي راجعة إلى كثرة تفريطنا وتضييعنا في مجاهدة النفس على العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ وهي كثرة المشاكل والأمور التي تقلق الإنسان ، سواء ما يصل إليه منها من طريق السمع أو ما يصل إليه من طريق البصر أو ما يصل إليه من طريق اليد أو ما يصل إليه من طريق القدم ، وقلة التوفيق في الأمور وقلة التسديد ؛ فالحديث يعطيك العلاج يعطيك الدواء الناجع لحل هذه المشكلة وهو أن تقبِل على الله سبحانه وتعالى ، ونيلك التسديد والتوفيق والمعونة في سمعك وفي بصرك وفي قدمك وفي سيرك وفي رواحك وفي أمورك كلها نيلك هذا التسديد والتوفيق بيد الله ، ولا تناله إلا إذا فعلت ما تنال به رضا الله والإقبال على طاعة الله سبحانه وتعالى . فالحديث يفتح لك باب التوفيق وباب التسديد وباب نيل معونة الله سبحانه وتعالى لك في أمورك كلها ؛ أن تصلح ما بينك وبين الله سبحانه وتعالى .

وهذا ينبهك على خطأ دارج عند كثير من الناس عندما يُنبه أحدهم على خطأ يفعله أو أمر يقع فيه تجده مثلا يقول "الله يهديني أو اسأل الله أن يهدينا" لكنه ما يجاهد ، الحديث ينبه إلى الخطأ هذا ، لابد مع قولك "الله يهدينا أو اللهم اهدنا أو ادعو الله أن يهدينا" مع هذا لابد أنت أن تجاهد نفسك ((لا يزال عبدي)) مجاهدة ، يجاهد الإنسان نفسه في المحافظة على الفرائض ويجاهد نفسه في الجد والاجتهاد فيما استطاع من النوافل تأتيه الثمرة العظيمة؛ يحبه رب العالمين ثم تأتي الثمار التي وراء ذلك؛ يسدده في سمعه يسدده في بصره يسدده في قدمه يسدده في يده ، يجيب دعاءه ((وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ)) إن طلب من الله شيئا أعطاه ، وإن استعاذ بالله تبارك وتعالى واعتصم به من شيء أعاذه ووقاه وحماه ، فهذه الأمور ثمار للمجاهدة التي دل عليها الحديث .

فالحديث ينبه العبد إلى أن ولاية الله سبحانه وتعالى لابد فيها من المجاهدة ، مجاهدة النفس على أولا حفظ الفرائض ثم بعد ذلك النوافل ، وانتبه هنا لتقديم الفرائض على النوافل ، لأن الفرائض مقدمة وبها يبدئ ، بعض الناس تجده يحافظ على بعض النوافل ويفوّت بعض الفرائض ، وبعضهم نسأل الله العافية والسلامة يحافظ على بعض البدع لا يفوِّتها ويضيع الفرائض ، وهذا من عجائب الناس ؛ بعض البدع ما يمكن يفرط فيها ولا يساوم فيها ومهما كانت ظروفه ما يضيعها ، بدع ما أنزل الله بها من سلطان ، والفرائض مضيعة!! ثم ربما يأتيه إحساس داخلي وهو مضيع للفرائض ومحافظ على البدع أنه من أولياء الله ، وربما بعضهم يخبر بذلك؛ يلبس زيًا معينا وهيئة

معينة من اللباس ويضيع فرائض الله سبحانه وتعالى ويحافظ على بدع لا دليل عليها لا في كتابٍ ولا في سنة ويشار إليه بين أصحابه بالبنان "هذا ولي من أولياء الله" ، وهو ربما أيضا يخبر عن نفسه بذلك . وبعضهم ربما قال بل قال بعضهم "لا أعلم وليًا لله إلا فلان وفلان وأنا" ، وهذه كلها من حماقات أهل الضلال وأهل الضياع والعياذ بالله .

والولي الصادق ما هو شأنه؟ هل هو يأتي عند الناس ويقول أنا ولي وأنا صاحب كرامات؟ هل عهدتم واحد من الصحابة أو غيرهم كان يقول ذلك؟ لا والله ، قال الله عن أوليائه: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠]، يقول عبدالله بن أبي مليكة «أدركتُ أكثر من ثلاثين صحابيا كلهم يخاف النفاق على نفسه» ما منهم من يزكي نفسه ويقول أنا ولي من أولياء الله ، والله يقول في القرآن: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم:٣٢] أيُّ تزكيةٍ للنفس أن يدعي الإنسان لنفسه أنه من الأولياء!! ولهذا لا يصح أن يدَّعي هذا الأمر الإنسان لنفسه ولا يدَّعيه لغيره ، يعني لو رأيت شخصًا عليه ظاهر الصلاح والاستقامة والمحافظة على الفرائض والمحافظة على النوافل لا تجزم ولكن قل "نحسبه من الأولياء، نرجو أن يكون من الأولياء" أو نحو ذلك أما الجزم لا ، لا يجزم به ، إذا كان قتيل المعركة الذي يرفع السيف ويبلي بلاء عظيما في النكاية بالأعداء لا يجوز أن يقال شهيد! وفي صحح البخاري «باب لا يقال فلان شهيد» لماذا ؟ لأن الشهادة تترتب على أمر يوجد في القلب ما نراه وهو ماذا ؟ من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، هناك قتال للحمية ، وهناك قتال للعصبية ، وهناك قتال لأغراض أخرى ، وهذه كلها مكانها القلب لا يطلع عليها الناس ، «باب لا يقال فلان شهيد» وأورد من النصوص ما يدل على المنع من ذلك، لكن من قُتل في المعركة ورآه الناس أبلى بلاءً حسنا يقال ماذا؟ "نحسبه من الشهداء ، أرجو أن يكون من الشهداء، هو من الشهداء إن شاء الله" أو نحو ذلك ، أما الجزم لا . والولاية هذه المنزلة العظيمة لا يجزم بها لأحد، لكن إذا رؤي شخص ظاهره الصلاح والاستقامة والمحافظة على طاعة الله سبحانه وتعالى يقال "نحسبه، نرجو" أو نحو ذلك أما الجزم لا ، لا يجزم بذلك لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ولأدلةٍ أخرى كثيرة.

وهذا الذي يبين لكم الفرق بين حال الأولياء الصادقين من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان وحال غيرهم ، ما كان أحد من الصحابة يدَّعي لنفسه ذلك ، ولو تقرأ سيرهم ترى عجبا ، حتى إن الحسن البصري رحمه الله قال كلمة عجيبة ، قال : «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة ، والمنافق جمع بين إساءة وأمن» تجده مضيع للفرائض ويظن أنه أحسن الناس ، والمؤمن تجده في جد واجتهاد ومحافظة على العبادة وفي الوقت نفسه في خوف ، وهذا هو معنى الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠] ،قالت عائشة رضي الله عنها كما في المسند وغيره

بسند ثابت قالت: «قلت يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللهَ؟» قَالَ: ((لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)) هذا هو معنى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي خائفة أن يرد عليهم عملهم ، والله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧] .

فالشاهد أن العبد في هذا الباب العظيم يجاهد نفسه وهو يجمع بين الرجاء والخوف ؛ يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ولا يدَّعي لنفسه رتبةً علية أو منزلة رفيعة وإنما يرجو الله ويقول أنا مقصر وأنا مفرط ، ولا يزال في المجاهدة إلى أن يلقى الله سبحانه وتعالى وهو على حال ينال بها أعظم منال بإذن الله سبحانه وتعالى .

ثم قال في تمام الحديث: ((**وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**)) أي أنه سبحانه وتعالى يجيب دعاء من كان بهذه الصفة ولا يرده في مسائل ((وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ)) .

يقول الله سبحانه وتعالى: ((**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، ولابد له منه**)) ؛ وهذا فيه من المعرفة بالله سبحانه وتعالى: معرفة فضله وكرمه ولطفه ورحمته وإحسانه ومكانة عبده المؤمن عنده سبحانه وتعالى ، مع أنه جل وعز غني عن المؤمن ، لا تنفعه طاعته إن بقي حيا ، ولا تضره معصية من عصى ، لكن هذا الكرم هذا الجود هذه الرحمة هذا اللطف والإحسان منه جل وعز ؛ فانظر هذا الكرم وتأمل هذا اللطف والإحسان .

يقول الغني سبحانه وتعالى ((**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ**)) أي أنه سيفعله سبحانه وتعالى كتب ذلك وقدره وقضاه ((**تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ**)) وانتبه هنا رعاك الله لا يخطر ببالك التردد الذي تفهمه من صفة الإنسان ، التردد الذي هو في صفة الإنسان هذا يليق بالإنسان وبضعفه وبعجزه وبقلة علمه وقلة بصيرته ، الإنسان عندما يتردد في أمر أن يفعله أو لا يفعله يكون تردده مبني على ماذا؟ قد يكون تردده مبني على جهل بالعواقب ، ما يدري هل الأصلح كذا أو الأصلح كذا فتجده متردد ، ولهذا شُرع لنا إذا تردد الإنسان في أمر أو تحير أن يصلي صلاة الاستخارة ويفوض الأمر لمن أحاط بكل شيء علما ، ((اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ؛ فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب)) يفوض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى. هذا تردد العبد وهو مبني على جهل بالعواقب ، ولا يجوز بحال عندما تقرأ صفات الله سبحانه وتعالى أن تُخطر في بالك أو تورد في ذهنك أوصاف المخلوقين هذا باطل ، فصفات الله جل وعلا التي أضافها إلى نفسه تليق بجلاله وكماله ، فنحن نثبت ما أثبته الله لنفسه وهو قوله ((ما ترددت)) نثبت هذا كما أثبته الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي الوقت نفسه نثبت معه كمال العلم المحيط العلم بما كان وما يكون وبما لم يكن أن لو كان كيف يكون ، وأنه عز وجل أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، نؤمن بذلك كله .

فإذًا التردد الذي ذكر هنا وأضافه الله سبحانه وتعالى لنفسه في هذا الحديث القدسي ما معناه ؟ الجهل بالعواقب رب العالمين منزه عنه، أحاط بكل شيء علما ، ما معناه ؟

قال مبينا معناه في الحديث نفسه: ((**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، ولابد له منه**)) هذا هو التردد: أن الله سبحانه وتعالى فاعل شيء وهو قبض روح المؤمن ، والعبد يكره الموت والله عز وجل يكره مساءة العبد ، قال ((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ)) يعني فاعل ذلك سيقبض الله روحه ، لكن قال ((يَكْرَهُ الْمَوْتَ)) والله يكره المساءة فهذا معنى التردد في الحديث . ولا يصح لإنسان أن يقول "لا يجوز أن يُثبت هذا لله لأن التردد يعني الجهل بالعواقب والله منزه عن ذلك" ، يكون قائل هذه الكلمة جمع بين سيئتين ما هما ؟ التشبيه أولا والتعطيل ثانيا ، أولًا شبَّه التردد الذي أضيف إلى الله بالتردد الذي يُعهد في المخلوق ، ثم بنى على هذا التشبيه تعطيل ما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه ، وهذه جادة باطلة جمعت بين سوءتين ، والسلامة في هذا الباب أن نثبت لله ما أثبته سبحانه وتعالى لنفسه على الوجه اللائق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى .

وإذا أردت أن تتأمل هذا المعنى في أقوى صوره تأمل في فضل قبض الله جل وعلا لروح عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم خليل الله عليه الصلاة والسلام ، ولهذا نبه عليه الصلاة والسلام على هذا المعنى وأشار إليه عندما قال ((مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ)) فقبَض الله عز وجل روح عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وخليله صلوات الله وسلامه عليه وحمل عليه الصلاة والسلام ميتًا ووضع في الأرض ودفن في التراب صلوات الله وسلامه عليه وهو خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله تعالى :

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)) متفق عليه .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم أيضا في باب معرفة الله سبحانه وتعالى ، وأن مما نعرف الله به أنه ينزله سبحانه وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا كما أخبر بذلك الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام . وهذا الحديث حديثٌ متواتر رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم قرابة الثلاثين صحابي كلهم سمعوه عليه الصلاة والسلام يقول هذا ، يقول ((ينزل ربنا)) أثبت النزول وأضافه إلى الله جل وعلا ، قرابة الثلاثين صحابيا عدَّهم ابن القيم رحمه الله

في كتابه الصواعق المرسلة ثمان وعشرين كلهم سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول ((ينزل ربنا)) يضيف النزول إلى الله سبحانه وتعالى ينزل ربنا إلى السماء الدنيا .

وهنا أيضا ينبغي أن تنتبه إلى ما سبق بيانه وإيضاحه الصفات التي تضاف إلى الله جل وعلا تخصه وتليق به ، وإذا خطر ببالك اللوازم التي تلزم صفة المخلوق فثق تمامًا أن رب العالمين واعلم تماما ويقينًا أن رب العالمين منزه عن ذلك، الآن عندما تنظر في نزول المخلوق تجد أن نزول المخلوق يلزمه لوازم كثيرة تعرفها أنت من نزولك ونزول غيرك من الناس ، هذه لوازم المخلوق ومن الباطل والفساد والضلال أن تضاف اللوازم التي تخص المخلوق إلى الخالق سبحانه وتعالى ، فعليك هنا عندما تقرأ هذا الحديث وأمثاله أن تثبت الصفة لله جل وعلا على الوجه اللائق بجلاله ، وإياك وأن تشبِّه الله عز وجل في صفاته أو في شيء منها بصفات المخلوقين أو بشيء من صفاتهم .

فهنا يقول: **((ينزل ربنا))** نحن أيضا نقول كما قال عليه الصلاة والسلام : ((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا)) ، نقول كما قال عليه الصلاة والسلام وكما نقل الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، خلافا لأهل البدع ممن جحدوا ذلك ونفوه وعطلوا هذه الصفة وقالوا بكل صراحة النزول لا يليق به ، هكذا قالوا وكأنهم أعلم بالله من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر عن ربه جل وعز أنه ينزل وهم يأتون فيما بعد ويقولون النزول لا يليق به ، ثم ماذا يذكرون؟! يذكرون اللوازم التي تلزم نزول المخلوق وبناءً عليها بحثوا نزول الخالق سبحانه وتعالى فجمعوا بين المساءتين مساءة التشبيه ومساءة التعطيل ، ولو سلِموا من التشبيه لسلِموا من التعطيل . فالواجب هنا وفي كل الصفات أن تثبت الصفة لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق به ، أحد السلف سئل عن النزول فأجاب فيه بما أجاب مالك رحمه الله في الاستواء فقال : «النزول معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» ، وقل مثل هذه الكلمة في كل صفة من صفات الله تبارك وتعالى .

((ينزل ربنا)) النزول هنا أضيف إلى الله وأسند إليه ، فالذي ينزل هو الله ، قال المعطلة لهذه الصفة والمشتغلون بتعطيل الصفات : ليس النزول نزول الله سبحانه وتعالى وإنما النزول نزول ملك ، قالوا والمعنى في قوله ((ينزل ربنا)) ينزل ملك ربنا ، قالوا فيه محذوف مقدر ، والمحذوف المقدر لم يكتشفه إلا هؤلاء في عصور متأخرة!! النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكره والصحابة ما ورد على ألسنتهم والتابعون لهم بإحسان لم يأت على ألسنتهم حتى جاء زمن أولئك واكتشفوا هذا المحذوف المقدر!! قالوا هناك محذوف مقدر تقديره ملك ربنا . إذا وضعتم هذه الزيادة في الحديث ماذا سيكون معنى الحديث؟ أكملوا الآن الحديث حتى تعرفوا فساد ما عليه هؤلاء ، أكملوا الحديث وأضيفوا هذا المحذوف المقدر الذي قاله هؤلاء وانظروا ماذا سيحصل الآن في الحديث ؟ ولنقرأ الآن الحديث بالمحذوف المقدر المدعى في كتب أكثر أهل الكلام ، ماذا سيكون ؟ "ينزل ملك ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة

فيقول من يسألني فأعطيه من يدعوني فأستجيب له من يستغفرني فأغفر له" . إذًا الملك ادَّعى نفسه إله من دون الله ؛ ينزل كل ليلة وليس ليلة واحدة كل ليلة ينزل ويدَّعي أنه إله يقول من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له من يدعوني فأستجيب له، والله عز وجل قال في القرآن: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾[الأنبياء:٢٩] فهؤلاء ترتب على مقالهم هذا اللازم . وجاء في بعض ألفاظ هذا الحديث في بعض طرقه أن الله عز وجل يقول: ((ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة في ثلث الليل الآخر فيقول لا أسأل عن عبادي أحدًا غيري)) ، أيضا إذا أضيف هذا المحذوف المدعى وقيل "ينزل ملك ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول لا أسأل عن عبادي أحدا غيري" فهذا يبين لك فساد هذا الكلام ، ويريدون أن يفروا من شيء ويقعون في شر منه ، فالسلامة لا تكون إلا بالوقوف على قدم التسليم ، وأن يثبت الإنسان لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام من صفات الكمال ونعوت الجلال ، يثبت ذلك لله على الوجه اللائق به .

ثم هذا الحديث فيه ما في قبله من الارتباط بين العقيدة والعمل ؛ فأخبر عليه الصلاة والسلام أن الله ينزل في ثلث الليل الآخر ثم نبه على الجد والاجتهاد في ذاك الوقت في العمل بالسؤال والدعاء والاستغفار ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾[آل عمران:١٧] ، ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الذاريات:١٨] وبالصلاة وبذكر الله جل وعلا ودعائه وهذا عمل يترتب على قوة إيمان العبد واستحضاره لهذا المعنى الجليل وهذه العقيدة العظيمة الثابتة في هذا الحديث . وبهذا أيضا تدرك أمرا نبه عليه العلماء وهو: أن تعطيل الصفات وجحدها وتأويلها شؤم على الإنسان في أعماله وتعطيل له في طاعته لربه سبحانه وتعالى .

فالشاهد أن هذا الحديث مما يرشد إليه ويدل عليه في معرفتنا بربنا سبحانه أنه ينزل كل ليلة في ثلث الليل الآخر ويقول: من يسألني؟ من يدعوني؟ من يستغفرني؟ ؛ فهذا وقت فاضل ووقت إجابة الدعاء يتفضل الله سبحانه وتعالى فيه بالنزل إلى سماء الدنيا نزولا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى وعظمته ، الله أعلم بكيفيته سبحانه وتعالى ويقول من يسالني من يستغفرني من يدعوني ، فهذا يحرك في العبد إقبالا على الطاعة والذكر والاستغفار والدعاء في هذا الوقت الفاضل العظيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ)) رواه البخاري .

****

ثم ختم هذا الباب رحمه الله بهذا الحديث الذي فيه بيان معرفة الله عز وجل ببيان ما أعده لأوليائه وعباده وما هيأ لهم من النُّزل في دار كرامته جل وعز ؛ فذكر هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا**)) ؛ فهذا الحديث فيه التفاوت في نعيم الجنة وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾[الأحقاف:١٩] ، في الحديث الآخر قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)) ، والقرآن فيه إشارة إلى التفاضل في الجنان والتمايز بينها ؛ في سورة الرحمن قال عز وجل: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن:٤٦] ثم ذكر أوصاف هاتين الجنتين، ثم قال بعدها: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن:٦٢] وذكر أوصافهما ، وفي سورة الواقعة ذكر سبحانه وتعالى أوصاف جنة المقربين وذكر أيضا بعد ذلك أوصاف جنة أصحاب اليمين ، فهي جنان متفاوتة ومتفاضلة في الآنية ، في الطعام ، في الأُكل في الأنهار ، فيما أعده الله سبحانه وتعالى من النزل والكرامة لأهلها ، متفاوتة ليست على درجة واحدة ، ولهذا نصح عليه الصلاة والسلام عباد الله نصيحة عظيمة قال: ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ)) ؛ هذه نصيحة لعباد الله ، وقد قال الله عز وجل عن هذا الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾[الأحزاب:٦] ، ولهذا بعض العوام ماغ ينصح لنفسه في هذا الباب ، بعضهم ربما يقول "يا رب أدخلني الجنة ولو عند الباب" ، ما ينصح لنفسه، فانظر لكلام النبي: ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)) ، فنصح عليه الصلاة والسلام كل عبد من عباد الله أن يقبل على الله بصدق واجتهاد وجد وسؤال وإلحاح على الله سبحانه وتعالى ، وليس عزيز على الله سبحانه وتعالى أن يكرم عبده بعالي الدرجات ورفيع المنازل ، فالعبد يجتهد ويسأل ربه الكريم ويتوجه إليه عز وجل بالأعمال الصالحة والدعوات والإقبال على الله عز وجل حتى يلقى الله عز وجل وينال هذا الثواب العظيم .

ثم ذكر أكبر نعيم وأعظمه مما يناله أهل الجنة في الجنة قال : ((**وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**)) وهذا فيه إثبات الكبرياء صفة لله كما يبين ذلك الحديث الذي في الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام : ((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا

قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ)) ، فالله عز وجل من صفاته الكبرياء ومن صفاته العظمة ، قد كان عليه الصلاة والسلام يقول في ركوعه ((سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)) .

قال: ((**وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**)) ومما يوضح هذا أيضا ما جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم قال : ((فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ)) . ما ذُكر في هذا الحديث هو معنى قوله سبحانه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] فالحسنى: الجنة ، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبدالله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، واجعل ما نتعلمه حجة لنا لا علينا ، اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا والتوفيق لما تحبه وترضاه . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٣]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلةً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رُمي بنجم فاستنار فقال : ((ما كنتم تقولون إذا رُمِي بمثل هذا ؟)) قالوا : كنا نقول وُلِد الليلة عظيم أو مات عظيم ، فقال : ((إنها لم تُرمَ لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا عز وجل إذا قضى أمراً سبَّحت حملة العرش حتى يسبِّح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، فيقول الذين يلون حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيُخبرونهم ماذا قال ،

فيستخبِر أهل السماوات بعضهم بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيلقونه إلى أوليائهم ، فما جاءوا به على وجهه فهو الحق ولكنهم يقذفون ويزيدون)) رواه مسلم والترمذي والنسائي .

****

قال المصنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: ((**بابٌ قول الله تعالى** : ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣])) ؛ هذه الآية جاءت لبيان وجوب توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له وإفراده جل وعز بالعبادة ، وبطلان الشرك واتخاذ الأنداد الذين يُدعون من دون الله وتصرف لهم العبادة من دون الله جل وعلا . فهذه الآية جاءت مقررة لتوحيد الله مبطلة للشرك . وفهم هذه الآية يتطلب التأمل في الآيتين التين قبلها .

قال الله عز وجل: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ؛ فالسياق من أوله جاء لتقرير التوحيد وإبطال الشرك؛ إبطال اتخاذ الأنداد الذين يدعون من دون الله عز وجل ، بل إن هذه الآيات كما نبه العلماء رحمهم الله من أعظم الآيات التي تبطل الشرك ، بل قال بعض العلماء إنها تقطع شجرة الشرك من عروقها وتجتثها من أصولها ، بحيث إنها لا تبقي لمشركٍ متعلَّق ولا تبقي لمندد متمسَّك فهي تجتث الشرك من أصله وتقتلعه من عروقه ، ومَن تدبر هذه الآيات وفهمها نفعه الله تبارك وتعالى بها نفعا عظيما في إبطال الشرك ودحضه وتقرير التوحيد وتأصيله .

وقد بيَّن العلماء رحمهم الله وجه دلالة هذه الآية على اجتثاث شجرة الشرك واقتلاعها من عروقها؛ أن ما يتمسك به المشرك في دعائه لغير الله تبارك وتعالى وسؤاله لغيره جل وعلا لا يخرج عن أمور جاءت هذه الآية مبطلةً لها واحدًا تلو الآخر ، فلم تُبق لمشرك متعلق أو متمسك ، ذلك أن من يُدعى من دون الله تبارك وتعالى لابد أن يكون متصفًا بصفاتٍ إن وجدت فيه استحق أن يُدعى وإلا فإن دعاءه باطل وضلال ، وهذه الصفات جاءت هذه الآيات مبطلة لها واحدًا تلو الآخر .

❖ الأمر الأول: أن من يُدعى من دون الله يستحق أن يدعى لو كان يملك في هذا الكون ولو قدرًا يسيرًا أو شيئا ضئيلا ولو مثقال ذرة ملكًا استقلاليا ، فلو وُجد أحد بهذه الصفة فإنه يستحق أن يُدعى لهذا الملك الاستقلالي، ومعنى ملكًا استقلاليا أي ملَكه بدون أن يملّكه الله تبارك وتعالى إياه وإنما استقل هو بملكه وانفرد بملكه . فأبطل الله عز وجل هذا الأمر الأول بقوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ، كل من يُدعى من دون الله من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء أو غيرهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ؛ أي مُلكًا استقلاليا بدون أن يملّكهم الله تبارك وتعالى إياه ، والله يقول: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] ، هذا الأمر الأول أُبطل .

- ❖ أمرٌ ثاني أو احتمال آخر إن وجد في أحد استحق أن يُدعى؛ وهو أن يكون شريكا للمالك في ملكه أو في شيء من ملكه ، فلو وُجد بهذه الصفة شريك للمالك للرب في ملكه أو في شيء من ملكه استحق أن يُدعى لهذه الشركة التي له مع المالك ؛ فأبطل الله عز وجل هذا الاحتمال الثاني بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ ؛ «وما لهم» أي من يُدعَون من دون الله ، «فيهما» أي السماوات والأرض ، «من شرك» أي من مشاركة ، ليس لمن يُدعى من دون الله تبارك وتعالى أي مشاركة في السماوات ولا في الأرض ، فهو لا يملك شيئا استقلاليا ، وليس له أيضا شيء في السماوات والأرض على وجه المشاركة مع المالك في ملكه ولو في جزء يسير، فأبطل الله عز وجل هذا الاحتمال الثاني .

- ❖ يبقى احتمال ثالث إن وجد استحق من وُجد به ذلك أن يُدعى ؛ إن لم يكن مالكًا ولم يكن شريكًا للمالك في ملكه هناك احتمال ثالث إن وُجد فيمن يدعى من دون الله استحق أن يُدعى لوجود هذه الصفة فيه وهي : أن يكون معاونًا للمالك ، ليس مالكًا ولا شريكًا للمالك ولكنه معاون للمالك وظهير ومساعد ، فإذا وُجد أحد بهذه الصفة استحق أن يدعى فأبطل الله عز وجل ذلك بقوله ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ؛ «وما له» الضمير يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، «وما له» أي الله «منهم» أي ممن يدعون من دونه سبحانه وتعالى «من ظهير» أي من معاون ومساعد ووزير ونحو ذلك هذا أمر نفاه الله قال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ .

إذًا بطلت احتمالات ثلاثة أبطلها الله عز وجل واحدًا تلو الآخر حسب أهميتها ومكانتها ؛ نفى أولا أن يكون أحد مالكا لشيء في السماوات ولا في الأرض ملكا استقلاليا ، ثم أتبع ذلك بنفي وجود مشارك لله عز وجل في شيء من الملك ولو في قدر يسير ، ثم أتبع ذلك بنفي العوين أو الظهير أو المعين أو الوزير بقوله ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ .

- ❖ يبقى بعد هذه الاحتمالات الثلاثة احتمال رابع إن وُجد فإن من يوجد فيه هذا الوصف يستحق أن يدعى فأبطله الله عز وجل وهو: الشفيع الذي يشفع عند المالك ابتداءً ، أي بدون إذن المالك ، مثل شأن الناس الوجهاء والذين لهم مكانة عند أصحاب السلطة ولهم مكانة أيضا وثِقل في المجتمع فيستغل مكانته وجاهه ومنصبه فيدخل في الوقت الذي شاء ويشفع فيمن شاء ويطلب مستغلًا جاهه وهيبته ومكانته بدون إذن ،

ولهذا قال العلماء : إن المشركين في اتخاذهم الشفعاء شبَّهوا الله عز وجل بملوك الدنيا الذين يدخل عندهم الشفعاء بدون إذن وبدون استئذان ويطالب لفلان بكذا ولفلان بكذا ويرضخ الوالي أو السلطان لأمرهم تقديرًا لمكانته أو خوفا من منزلته أو نحو ذلك فيعطيه ما أراد ولا يردُّه فيما طلب خوفا أو هيبة أو طمعا أو نحو ذلك من الأمور التي توجد . فنفى الله عز وجل الشفيع الذي هو بدون إذن المالك سبحانه وتعالى . وقد كان المشركون يعتقدون في أصنامهم أن لها مكانة عند الله فتشفع لمن شاءت وتقرب من شاءت إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا يتعلقون بها ويبكون عندها وترق قلوبهم ويسألونها ويرجونها لأنها تملك شفاعةً عند المالك تقرب من شاءت منه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] أي أنها عندها استطاعة وقدرة بأن تشفع لنا عند الله فتدنينا منه وتقربنا منه وهذا شيء تملكه بزعمهم ، فأبطل الله سبحانه وتعالى هذا المتعلق الرابع بقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ .

فما بقي لمشرك متعلق ، من يدعو غير الله بماذا يتعلق ؟ هذا الذي يتجه إليه بالدعاء والسؤال والطلب والإلحاح والذل بماذا يتعلق؟ هو ليس مالكا ، ولا شريكا للمالك ، ولا عوينا للمالك ، ولا يستطيع أن يشفع عند المالك بدون إذن ؛ فلماذا يتعلق به؟! فإذًا الآية كما وصف العلماء رحمهم الله اجتثت شجرة الشرك من عروقها واقتلعتها من أصولها بحيث إنه لم يبقَ لمشرك متعلق .

ثم في هذا السياق العظيم جاء هذا الموضع الذي جعله المصنف رحمه الله هنا عنوانًا للترجمة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ؛ أنت الآن فهمت السياق ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾من هم ؟ السياق الآن في إبطال الشرك وإبطال دعاء غير الله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وممن يُدعون من دون الله ويُلتجأ إليهم من دون الله ملائكة الله ، فأيضا في أثناء هذا السياق الذي جاء لإبطال الشرك بيَّن رب العالمين سبحانه وتعالى حال هؤلاء الملائكة الذين هم أعظم المخلوقات أجسامًا وقوة وقدرة أن حالهم إذا تفكر فيها المتفكر وتأمل فيها المتأمل حالهم مع الله تكشف كشفا واضحا وتبين بيانا جليا أن العبادة لا يستحقون منها ولا ذرة ، لا يستحقون منها شيئا ، وأن العبادة حق لمن خلقهم وأوجدهم ، وأن حالهم مع الخالق العظيم سبحانه وتعالى هي حال ضعف وحال فزع وحال خوف ، مع قوتهم وما آتاهم الله عز وجل من البسطة في الأجسام والقوة والقدرة كل هذه الأمور ليست مخوِّلة لأن يصرف لهم شيء من العبادة لأنهم عباد لله عز وجل ، عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ورب العالمين يقول في شأن هؤلاء الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ

مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩] ، فهم عباد لله سبحانه وتعالى وحالهم مع الله جل وعلا حال ضعف .

وأنت إذا جمعت هنا في هذا الموضع بين نظرين:

- النظر الأول : تتفكر في حال الملائكة من حيث ضخامة الأجساد القوة التي آتاهم الله القدرة التي آتاهم الله .
- والنظر الثاني: تأمل أيضا في حالهم مع الله تجدها حال خشية خوف فزع التجاء إلى الله تسبيح تضرع ؛ هذه حالهم مع الله سبحانه وتعالى عبادٌ لله عز وجل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

النظر الأول استعن فيه بالآيات والأحاديث التي تصوِّر لك حال الملائكة ، الملائكة أعطاهم الله عز وجل من كبر الأجسام شيء لا يخطر ببالك وأعطاهم الله عز وجل من القوة والقدرة شيء لا يخطر ببالك ، منحهم الله عز وجل أمورًا وأقدرهم على أشياء سبحانه وتعالى والأمر بيده سبحانه ، ولهذا تأتي أحاديث كثيرة تندهش عندما تقرأها في بيان ما يتعلق بأجسام الملائكة وكبرها ، أو ما يتعلق بقوة الملائكة وقدرتهم وما آتاهم الله عز وجل من أمور ، تندهش عندما تقرأ ذلك . على سبيل المثال ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ)) يعني لو أن طيرا أراد أن يطير من العاتق إلى شحمة الأذن يحتاج إلى سبعمائة سنة طيران حتى يصل إلى شحمة الأذن . بالنسبة لنا نحن المسافة هذه ما تكفي أن يقف الطير فضلا عن أن يطير يحتاج إلى سبعمائة سنة طيران ، هذه المسافة ما بين شحمة الأذن إلى العاتق فما هي المسافة بين بقية أجزاء بدنه ؟ هذه ضخامة في الأجسام وأيضا ما أعطاهم الله عز وجل من قوة أحد الملائكة يحمل قرية بكاملها بما فيها من سكان ويقلبها رأسا على عقب ((لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين)) جبلين يطبقهما على من فيهما ، أعطاهم الله جل وعلا قدرة .

فيتفكر الإنسان في هؤلاء الملائكة من جهة ما أعطاهم الله من القوة ومن القدرة ، وأيضا تفكر في الجانب الثاني الذي لا ينبغي أن يغفل عنه وهو ذل هؤلاء الملائكة وانكسارهم بين يدي الله جل وعلا وضعفهم وافتقارهم إلى الله وعدم غناهم عنه طرفة عين؛ هذه المعاني لابد أن تكون حاضرة عند الإنسان ، إن غفل عنها ونسيها ولم يحضرها في ذهنه تورط فيما تورط فيه غيره ممن وقع في الشرك ، إذا غفل عن أن هؤلاء عباد لله مسخرون مربوبون مدبرون بتدبير الله سبحانه وتعالى وقع فيما وقع فيه غيره من الشرك والاستنجاد بغير الله ، إما ينظر إلى قدرة من يدعوه أو ينظر إلى قوته أو ينظر إلى مكانته أو ينظر إلى أمور أخرى من هذا القبيل ويغفل عن جانب آخر كان يجب أن ينظر إليه وهو أنهم عباد لله سبحانه وتعالى طوع أمره وتسخيره وتدبيره جل وعلا . فالآية تبين لك هذا المعنى .

قال : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ما معنى «فزع عن قلوبهم»؟ قال العلماء في كتب التفسير: أي زال الفزع عن قلوبهم ، هذا الفزع متى يحدث؟ يحدث كما سيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف أن الله عز وجل عندما يتكلم بالوحي تخر الملائكة صعقة ، الملائكة الذين عرفت شيئا من أوصافهم وقوتهم وأجسامهم وضخامتهم وقدرتهم إذا تكلم الله سبحانه وتعالى بالوحي خرت صعقة ، الملائكة تصاب بغشي يغشى عليها تصعق خضعانا لقوله وذلا وانكسارًا بين يديه تبارك وتعالى ، إذا تكلم بالوحي . ثم يصف الله عز وجل حال الملائكة عندما يزول عنهم الفزع الذي أصابه عندما تكلم الله جل وعلا بالوحي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي أزال الله عنهم الفزع الذي في قلوبهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يسأل الملائكة بعضهم بعضا ماذا قال ربكم ؟ فيجيبون ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .

ويجب أن تنتبه هنا أن هذه الآية سيقت لإبطال الشرك ، إذا قرأت معها الآيتين قبلها فهمت أنها سيقت لإبطال الشرك ، فكأنه يقال: هؤلاء الملائكة الذين آتاهم الله ما آتاهم من القوة والقدرة وضخامة الأجسام إلى غير ذلك لا يستحقون من العبادة شيء ، كأنه يقال لك تأمل حالهم عندما يتكلم الله بالوحي ؛ ما أن يتكلم سبحانه وتعالى بالوحي إلا وتخر الملائكة صعقة ، تُصعق ويصيبها غُشي ، وإذا زال عنها هذا الصعق والغشي وقامت من هذا الفزع سألت الملائكة ماذا قال ربكم؟ فيجابون «قال الحق وهو العلي الكبير» . فهذا كله جاء لإبطال الشرك ، حتى ما خُتمت به الآية بذكر هذين الاسمين الكريمين هما أيضا في تقرير التوحيد إبطال الشرك «العلي الكبير» ، العبادة حق لمن؟ العبادة حق للعلي الذي له العلو علو الذات وعلو القدر وعلو القهر ، والكبير الذي لا أكبر منه سبحانه وتعالى . وانتبه هنا لقوله «الكبير» كل ما يخطر في بالك من كِبر كل ما يخطر في بالك من عظمة فهي ليست شيئا أمام عظمة الله سبحانه وتعالى وكبره ، كبر الملائكة ضخامتها قدرتها قوتها ليست شيئا أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، فهي قدرة أقدرهم الله عليها وأجسام منحهم الله تبارك وتعالى إياها ؛ فكيف يصرف لهم العبادة التي هي حق لله ولأُ يتوجه فيها لمن أعطاهم ولمن منحهم ولمن تفضل عليهم وهو رب العالمين الذي بيده تبارك وتعالى أزمة الأمور .

فإذًا قوله سبحانه وتعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ هذه الآية جاءت مقرِّرة للتوحيد مبينةً لعظمة الله سبحانه وتعالى وجلاله وكماله وأنه الرب المتصرف المالك المدبر وجميع المخلوقات عظمت أو صغرت طوع تدبيره وتسخره جل وعلا ، لا خروج لأحد عن قدَره جل وعلا وأمره ، أمره نافذ وقدرته سبحانه وتعالى شاملة ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ؛ كل هذه المعاني العظيمة تبين للإنسان عظمة الله جل وعلا وأنه وحده الذي يستحق أن يُصرف له الذل ويصرف له الخضوع وتصرف له العبادة بجميع أنواعها.

ثم أورد رحمه الله حديث ابن عباس في مسلم والترمذي والنسائي وهو من الأحاديث التي تبين معنى الآية الكريمة ، قال عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((**حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رُمي بنجم**)) المراد بالنجم هنا : الشهب التي ترجم ويرمى بها الشياطين ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[الملك:٥] ، فهذه النجوم أو هذه الشهب جعلها الله سبحانه وتعالى رجومًا للشياطين تُرجم بها ، والمراد بالشياطين: أي الشياطين الذين يصعد بعضهم فوق بعض من أجل استراق السمع ، أي استراق الكلام الذي يدور بين الملائكة ، وهذا الكلام الذي يدور بين الملائكة هو نتيجة تكلُّم الله سبحانه وتعالى بالوحي ، فهو إذا تكلم بالوحي خرت الملائكة صعقة ، ويكون أول من يفيق جبريل فيخبره سبحانه وتعالى من وحيه بما يشاء ، ثم جبريل يخبر أهل السماء ، ثم أهل كل سماء يخبرون أهل السماء التي دونها إلى أن يبلغ الأمر إلى أهل السماء الدنيا من الملائكة ؛ فيتحدثون بهذا الأمر والشياطين تصعد بعضها فوق بعض من استراق كلمة واحدة ، لماذا هذا الصعود؟ بل لماذا هذه المخاطرة؟ هذه مخاطرة عجيبة جدًا ومغامرة يخاطرون بأرواحهم وبأعمارهم ويضحُّون يصعد الواحد فوق الواحد إلى أن يقرب من السماء الدنيا حتى يلتقطوا كلمة واحدة ، ثم قد يلتقط الكلمة وقد يضربه الشهاب قبل أن يلتقطها ، وإذا التقط الكلمة ما ينزل بها بل هو متوقع أن الشهاب سيضربه قبل أن ينزل فيُلقيها إلى الذي تحته مباشرة ومن تحته يلقيها ، بحيث لو ضرب الأعلى أو ضرب من هم في الأعلى تكون الكلمة تنزلت ، ويذهب ضحية هذه المخاطرة عدد منهم ، يضربهم شهاب فيموتون ويهلكون ، يخاطرون لماذا ؟ ماذا وراء هذه المخاطرة وماذا وراء هذه المغامرة؟ إضلال بني آدم وهم يدركون أن مخاطرتهم هذه لها ثمرات في إضلال الناس وصدهم عن دين الله سبحانه وتعالى ، يخاطرون ثم يأتون بهذه الكلمة إلى الكاهن، يلقونها على الكاهن فيمزج الكاهن بها مئة كذبة ، ليس عشر ولا عشرين يمزج بها مئة كذبة ثم يبدأ يتكهن ويجعل من ضمن الأمور التي يقولها لهم هذا الأمر الذي وصله مما استرقه الجن ، ما الذي يحدث في الناس؟ قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر : ((فيذكرون صِدقه في هذه المرة وينسون كذبه في المرات الكثيرة، ويقولون ألم يقل في يوم كذا كذا وكذا؟)) تبقى هذه عالقة في أذهانهم ليروج من خلالها كذبه المتراكم ، ألم يقل يوم كذا كذا وكذا؟ وكان فعلا صادقا وكان الأمر على ضوء ما أخبر ! فيذكرون صِدقه وينسون كذبه ؛ فتكون الفتنة في الناس ويكون تصديق الكهان والتعلق بالشياطين والانصراف إلى غير الله عز وجل بالذل والخضوع وطلب الشفاء ، هذا كله من مكر الشياطين وكيدهم ومن مصائدهم التي يضعونها لبني آدم لصدهم عن دين الله وعن عبادته سبحانه وتعالى .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**ما كنتم تقولون إذا رُمي بمثل هذا ؟**)) ما كنتم تقولون أي: في الجاهلية قبل أن يمنَّ الله عز وجل عليكم بالإسلام بهذا الدين العظيم ؛ إذا رمي بهذه الشهب أي شيء كنتم تقولون ؟

((**قالوا كنا نقول: وُلِد الليلة عظيم أو مات عظيم**)) هذه عقيدتنا ، عقيدتنا دائما إذا رأينا الشهاب يرمى قلنا وُلد عظيم هذه الليلة أو مات عظيم ، فيجعلون رمي الشهاب دليل على موت عظيم أو ولادة عظيم ، وانظر كيف صرفهم الشيطان عن الحكمة من رمي الشهب وشغَلهم بهذا الاعتقاد أنه وُلد الليلة عظيم أو مات الليلة عظيم، وصرفهم الشيطان عن هذا الرمي ما هو مقصده وما المراد به؛ فماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام ؟

قال : ((**إنها لم تُرمَ لموت أحد ولا لحياته**)) هذه العقيدة التي تعتقدون عقيدة خاطئة لا أصل لها ولا صحة لها ، ليست ترمى لموت أحد ولا لحياته ، إذًا لماذا ترمى؟ يأتي السؤال؛ فيبين عليه الصلاة والسلام قال : ((**ولكن ربنا عز وجل إذا قضى أمراً**)) أي من قضائه الكوني وأمَر بأمر ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]

((**إذا قضى أمرا سبَّحت حملة العرش**)) سبَّحت الله عز وجل أي نزهته ، لأن التسبيح هو التنزيه ، فسبحت حملة العرش أي: قالوا سبحان الله سبحان الله ، يسبحون الله جل وعلا، وهذا يفيدنا عظمة هذه الكلمة وجلالة قدرها وأنها كلمة من كلمات الدين العظيمة جدا .

قال: ((**سبَّحت حملة العرش**)) وهذا فيه الدليل على إثبات حملة العرش من الملائكة وثبوت هذا في القرآن ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧]

((**سبحت حملة العرش حتى يسبِّح أهل السماء الذين يلونهم**)) يعني يسبِّح أهل السماء الذين يلون حملة العرش ((**حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، فيقول الذين يلون حملة العرش**)) بعد هذا التسبيح الذي تداولوه كلهم إلى أن نزل إلى أهل السماء الدنيا ((**فيقول الذين يلون حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟**)) أي ماذا قال من الأمر الذي أمر به سبحانه وتعالى ((**فيُخبرونهم ماذا قال**)) أي يخبرونهم بالشيء الذي قاله الله سبحانه وتعالى .

قال: ((**فيستخبِر** –أي يسأل– **أهل السماوات بعضهم بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا ؛ فتخطِف الجن السمع**)) تخطف: أي تلتقط السمع ، وهم لا يلتقطون إلا شيئا يسيرا جدا ، والله حمى السماوات من استراقهم للسمع بالشهب التي تأتيهم من كل جهة ، قال عز وجل ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:٩-١٠] فهم الشهب تأتيهم من كل جانب ومن كل جهة والسماء محمية بالشهب ولا يأخذون من السمع إلا شيء يسير ، ولايزالون في مخاطرات متوالية ، مخاطرة تلو مخاطرة وأرواح من أرواحهم تزهق كثيرة جدا ولا يبالون بذلك في سبيل أن يضل بني آدم .

قال: ((**فتخطف الجن السمع فيلقونه إلى أوليائهم**)) أي من الكهنة والسحرة والعرافين والمشعوذين وغيرهم من إخوان الشياطين

((**فيلقونه إلى أوليائهم ، فما جاءوا به على وجهه فهو الحق**)) يعني فهو حق مما التُقط ، مما التقطه الجن واسترقوه من السمع ((**ولكنهم يقذفون ويزيدون**)) يقذفون فيه أي يقذفون فيه ويلقون فيه أشياء كثيرة ويزيدون فيه زيادة كبيرة والهدف من هذا كله إضلال بني آدم.

أنت إذا قرأت هذا السياق المبارك العظيم بيَّن لك حال الملائكة وأن الملائكة عندما يتكلم الله بالوحي أو بالقضاء فالملائكة تسبِّح وتعظم الله وتنزه الله تبارك وتعالى ، وليس لها حول ولا قوة والأمر بيد الله سبحانه وتعالى التدبير تدبيره والتسخير تسخيره ، ولا يكون في ملكه سبحانه وتعالى شيء إلا شيء شاءه وأراده ، الملائكة ليس بيدها شيء ، مع ما آتاهم الله من القدرة والقدرة ليس بيدهم شيء أبدًا ، الأمر كله بيد الله جل وعلا . أيضا الحديث الآخر يوضح هذا المعنى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة –أو قال رعدة شديدة– خوفًا من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا أو قال خروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل عليه السلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائمتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول ﴿ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)) رواه ابن جرير وبن خزيمة والطبراني وابن أبي حاتم واللفظ له .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث حديث النواس بن سمعان وهو يفسر الآية ويبين معناها ، والسنة شارحة للقرآن ومفسرة له ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام: ((**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي**)) وهذا فيه إثبات الكلام لله عز وجل ، أنه جل وعلا إذا أراد أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي ، والملائكة عباد لله عز وجل وَكَل الله عز وجل إليهم مهام متنوعة ؛ منهم من وكل بقبض الروح ، منهم من وكل بالمطر ، منهم من وكل بكتابة أعمال العباد ، إلى غير ذلك من الأمور التي وكلها الله سبحانه وتعالى للملائكة أو أمَر الملائكة بالقيام بتنفيذها .

((**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة**)) أي ترتجف السماوات إذا تكلم الله بالوحي ارتجفت السماوات أو ارتعدت شك الراوي ((**أخذها رجفة أو رعدة**)) ، وهذا يبين لنا أن السماوات

تحصل لها هذه الرعدة خوفا من الله وخشية من الله، هذه السماوات الطباق مترامية الأطراف إذا تكلم الله بالوحي ارتعدت أخذها رعدة خوفا من الله سبحانه وتعالى ،قال ((أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفا من الله))

((**فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا**)) أي أصيبوا بالصعق عندما يسمعون ذلك ، والسماوات ترتعد تصاب السماوات برعدة خوفا من الله عز وجل ، الملائكة في هذه الحال يصعقون يصابون بالصعق يُغشى عليهم .

قال: ((**صعقوا أو قال خروا لله سجدا**)) وجاء في بعض الأحاديث ((خضعانا لقوله)) أي خاضعين لقول الله تبارك وتعالى ؛ هذه حال الملائكة : ذل وانكسار وخضوع وخشية وخوف من الله تبارك وتعالى يصعقون ، هذه حالهم بين يدي ربهم ومالكهم جل وعلا .

((**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام**)) حتى هو أيضا يصاب بما يصاب به الملائكة ؛ فيصاب بما يصاب الملائكة من الصعق والغشي لكنه يكون أول من يفيق .

((**فيكلمه الله من وحيه بما أراد**)) فيسمع جبريل عليه السلام كلام الله من الله ، فالذي يكلم جبريل من الوحي بما يشاء ليس إلا رب العالمين جل وعلا ، الله هو الذي يكلمه ، وجبريل يسمع كلام الله من الله بلا واسطة ، يسمعه منه جل وعلا بحروفه وبصوته سبحانه وتعالى ؛ ولهذا من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل يتكلم بحرف وصوت ، والذي يسمعه جبريل من الله هو كلمات بصوت يسمعه جبريل عليه السلام ، وهذا كلامٌ ثابت لله جل وعلا يليق بجلاله وكماله وعظمته . وما يقوله أهل البدع يلزم من هذا كذا ويوردون لوازم عقلية ينشئونه هذا كله لا قيمة له ، كلام باطل نتيجته جحد ما أثبته الله وجحد ما أثبته رسوله صلى الله عليه وسلم ، والمسلم العاقل لا يلتفت إلى كلام المتكلمين وخوض هؤلاء الخائضين في الله وفي صفاته وأسمائه بغير علم ، بل هذا كله يعرض عنه ولا يلتفت إلى شيء منه . فالله يتكلم سبحانه وتعالى وكلامه بحرف وصوت ، وجبريل يسمع كلام الله من الله؛ ولهذا قال هنا في الحديث ((**فيكلمه الله من وحيه بما أراد**)) يكلمه الله ليس الذي يكلمه غير الله بل الله يكلمه بوحيه بما أراد وهو العلي ﴿ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

((**فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل**))﴿ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ، والرواية الأخرى فيها أيضا بيان أنه يخبرهم بما تكلم الله به وبما سمعه من الله سبحانه وتعالى ، ولهذا مر معنا في الرواية السابقة ما يدل على هذا المعنى قال : ((فيقول الذين يلون حملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال)) يعني يخبرونهم بالشيء الذي قاله سبحانه وتعالى . قال ((**فيقولون كلهم مثلما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث امره الله عز وجل**)) .

الشاهد أنك إذا تأملت هذا الحديث وضَّح لك معنى الآية ، والآية سيقت لتبين لك ضعف الملائكة وحالها مع الله، وأنها تصعق وتخاف وتصاب بالغشي ، وأنها تخر صعقة لله سبحانه وتعالى إذا تكلم بالوحي ؛ فأنت إذا عرفت

حال الملائكة بهذه الصفة تبين لك أنها لا تستحق من العبادة شيئا ، وإذا بطلت عبادة الملائكة فغيرها من المخلوقات من باب أولى ، لأن الله عز وجل آتى الملائكة من كبر الأجسام والقدرة والقوة ما لم يؤتِ غيرها من المخلوقات .

فالشاهد أن هذا كله مما يبين لنا عظمة الله جل وعلا وأنه مستحق للعبادة وأن العبادة حق له جل وعلا ؛ فلا يدعى إلا الله ولاُ يسأل إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يُطلب المدد والعون إلا من الله جل وعلا ، ومن صرف شيئا من هذه الأمور لغير الله ما عرف التوحيد ولا عرف ربه سبحانه وتعالى وكان أمره في ضياع ؛ حيث يصرف الغاية المقصودة التي خُلق لأجلها إلى غير الخالق العظيم والرب الجليل عظم وتقدس سبحانه وتعالى .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

الدرس الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا والتوفيق لما تحبه وترضاه .ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]

عن أبي هريرة رضي الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟)) رواه البخاري .

****

قال المصنف رحمه الله: ((**بابٌ قول الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [الزمر:٦٧])) ؛ هذه الترجمة معقودةٌ لبيان عظمة الله جل وعلا وجلاله

وكماله، وأنه عز وجل هو المستحق وحده أن يُفرد بالعبادة وأن يخص بالطاعة وأن لا يُجعل معه شريك في شيء منها ، لأنه تبارك وتعالى المتفرد بخلق السماوات خلقو الارض وخلق الناس وإيجاد هذه المخلوقات لا شريك له في شيء من ذلك ، فالواجب أن يُفرد تبارك وتعالى وحده بالعبادة، ومن لم يفرده جل وعلا بالعبادة فما قدره تبارك وتعالى حق قدره ؛ أي لم يعظمه حق تعظيمه .

قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي لم يعظموه جل وعلا التعظيم اللائق به ، وهذا حال المشركين كلهم ؛ فمن اتخذ مع الله الشركاء ما عظَّم الله ولا قدره تبارك وتعالى حق قدره ولم يرجُ وقارًا لله عز وجل وعظمةً ، قال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣-١٤] ؛ فهذه كلها تبين سوء حال المشرك الذي اتخذ مع الله تبارك وتعالى الأنداد . ولهذا يأتي في القران في آيات كثيرة من ذكر عظمة الله وجلاله وكمال اقتداره سبحانه وقوته وتدبيره لهذا الكون ، وأنه تحت تدبيره جل وعلا وبقبضته وتحت تصرفه وطوع أمره إلى غير ذلك من المعاني المبيّنة لعظمة الله جل وعلا وأنه تبارك وتعالى وحده المستحق للعبادة .

هذه الآية الكريمة صُدِّرت ببيان أن من اتخذ مع الله تبارك وتعالى الأنداد لم يقدُر ربه تبارك وتعالى حق قدره ، وخُتمت بتنزيه الله تبارك وتعالى عن أفعال هؤلاء المشركين المنددين المتخذين الشركاء مع الله تبارك وتعالى ، وذُكر في أثناءها من الدلائل البينات والبراهين الواضحات التي تبين فساد الشرك وما بطلان ما عليه أهله.

قال: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر:٦٧] ؛ «الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي تكون في قبضة يده جل وعلا ، وهذا فيه إثبات اليد لله ، يدًا تليق بجلاله وكماله موصوفة في القرآن وفي السنة بصفات اليد الحقيقية التي يُعرف معناها في لغة العرب ، ولهذا جاء في القرآن وفي السنة من أوصاف يد الرحمن تبارك وتعالى ما يدل على أنها يد حقيقية تليق بالله سبحانه وتعالى ، مثل القبض ، والطي ، والبسط ، والأخذ ((إلا أخذها الله بيمينه)) ، بل إن صفات اليد التي وردت في الكتاب والسنة يد الرحمن جل وعلا تقارب المئة صفة ، عدَّدها ابن القيم رحمه الله في كتابه الصواعق المرسلة تقارب المئة صفة كلها شاهدة على أنها يد حقيقية تليق بالله وبجلاله وكماله سبحانه وتعالى .

ومن أنكر ثبوت اليد صفةً له فهو جاحد معطل ، ومن شبَّه يد الله تبارك وتعالى بأيدي المخلوقين فما قدر الله حق قدره ويكون بذلك كافر مشبِّه . وكيف يصح من عاقل أن يشبِّه يد الله عز وجل وهي مضافة إليه عز وجل موصوفة بالكمال والجلال والعظمة! كيف يصح من عاقل أن يشبِّه يد الله بيد المخلوقين والله يقول عن يده سبحانه: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ، أي عقل هذا الذي يقول "إن أثبتنا لله اليد حقيقة لزم من ذلك أن تكون يده كيد المخلوق" !! تعالى الله عما يقولون ، وسبحان الله عما يصفون وتنزه وتقدس عما يفترون سبحانه وتعالى . فهذه اليد أثبتها الرب جل وعلا لنفسه فالواجب الإيمان بها كما جاءت

وإمرارها كما وردت ، وكذلك الإيمان بكل صفاتها التي جاء ذكرها في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛كالقبض والطي والأخذ والبسط والأصابع وغير ذلك من صفات اليد التي ذكرت في كتاب الله العزيز وسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾أي أنه تبارك وتعالى يطوي السماوات بيمينه ، والطي هو جمع أطراف الشيء بعضها إلى بعض. فالسماوات مطويات بيمينه: أي يطويها تبارك وتعالى ويجمع أطرافها بعضها إلى بعض بيمينه سبحانه وتعالى .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزّه نفسه في ختام هذا السياق العظيم عن الشرك واتخاذ الأنداد؛ أي تنزه وتقدس تبارك وتعالى عن شرك المشركين الذين سوَّوا به تبارك وتعالى ترابا ، وسوَّوا به تبارك وتعالى أحجارًا ، وسووا به تبارك وتعالى من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا ، سبحانه وتعالى عما يشركون : أي تنزه وتقدس تبارك وتعالى عن أن يُشرك به غيره وأن يسوَّى به غيره وأن يعدَل به غيره وأن يجعل غيره عدلا له تنزه وتبارك وتعالى وتقدس عن ذلك .

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة في معنى هذه الآية الكريمة ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض؟**)) هذا أمر يفعله الله تبارك وتعالى يوم القيامة يقبض الأرض بيده ويطوي السماء بيمينه ، وعرفنا معنى الطي ، ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ وجاء في بعض الروايات ((يهزهن تبارك وتعالى ويقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟)) أين ملوك الأرض: أين من كانوا يملكون في الأرض يملكون مدن أو ديار أو مناطق أين هم ؟ وأين ما يملكون ؟ وأين ملكهم ؟ ، وهو تبارك وتعالى الملك في الدنيا والآخرة الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ، لكن هذه الحقيقة لا تنكشف جلية لجميع الناس وعموم الخلق إلا إذا وقفوا وقد تجردوا من أمور الدنيا كلها وليس معهم منها أي شيء ، ووقفوا بين يديه تبارك وتعالى ليس معهم من الدنيا شيء الملوك والرؤساء والصغار والكبار وأصحاب الأموال والفقراء كلهم يقفون على صعيد واحد ليس معهم من الدنيا شيء ، من كان يملك فيها ومن كان لا يملك ، من كان عنده شيء قليل ومن لا شيء عنده ومن عنده شيء كثير ، الكل يقف في صعيد واحد في أرض عفراء ، أرض جرداء ، أرض لا ظل فيها ولا سكنى ولا مأوى ، يقفون وقد تجردوا من أمور الدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر ((يحشر الله الناس يوم القيامة حفاة عراة بهمًا)) قالوا وما بُهما يا رسول الله؟ قال : ((أي ليس معهم من الدنيا شيء)) أي: أيَّ شيء كانوا يملكونه في الدنيا لا يكون معهم لا درهم ولا دينار ولا تجارة ولا مسكن ولا غير ذلك؛ فينجلي الأمر ويتجلى للجميع ويظهر من كان مغترا بملكه مغترا بسلطانه مغترا برئاسته مغترا

بتجارته كل هذه الأشياء تذهب ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨-٢٩] كلها تذهب ولا يبقى منها شيء .

يقول الرب تبارك وتعالى : أين ملوك الأرض؟ أين ملكهم ؟ أين ذلك الملك المدَّعى؟ أين تلك السلطة؟ أين ذاك الأمر والنهي؟ أين ذاك التعالي والتكبر الذي يوجد في كثير من الناس؟ أين ملوك الأرض؟ يقول أنا الملك في حديث آخر يقول : ((أنا الملك أنا الديان)) الديان: المجازي المحاسب ؛ فهو تبارك وتعالى يجازي العباد في ذلك اليوم ويحاسبهم على ما قدَّموا في حياتهم الدنيا . يقول ((أنا الملك أين ملوك الأرض)) .

قال رحمه الله :

وله عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه ثم يقول أنا الملك**)) ، **وفي رواية عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [الزمر:٦٧] **ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده يحركها ويقبِل بها ويدبر ؛ يمجد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر أنا العزيز أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا ليخرَّن به. رواه أحمد .**

ورواه مسلم عن عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**يأخذ الله سماواته وأرضيه بيديه فيقبضهما فيقول أنا الملك ويقبض أصابعه ويبسطها فيقول: أنا الملك**)) **حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.**

****

ثم أورد المصنف رحمه الله الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه**)) أي أنه تبارك وتعالى يطويها بيمينه كما هو مبيَّن في الرواية التي قبله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تكون السماوات بيمينه ((**ثم يقول أنا الملك**)) وقوله عز وجل «أنا الملك» : أي الذي له الملك كله ؛مُلك الدنيا وملك الآخرة وملك الخلائق الذي بيده أزمة الأمور . واسمه تبارك وتعالى «الملك» يدل على ثبوت صفة الملك لله جل وعلا ، والملك الذي هو صفة الله تبارك وتعالى يتناول أمورًا كلها يشملها كونه تبارك وتعالى الملك ، منها : اتصافه جل وعلا بصفات الجمال والجلال والعظمة والعزة والقدرة والقوة إلى غير ذلك من الصفات التي هي

صفات الملِك جل وعلا ، فاسمه تبارك وتعالى «الملك» يدل على صفات الملك التي هي صفات الجلال والكمال والعظمة، صفات القوة والقدرة والتدبير والتصرف .

أيضا يشمل اسمه تبارك وتعالى «الملك» ويدل على أنه له الحكم ؛ له الحكم الشرعي ، فهو الذي يأمر وينهى ويشرع ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] ، وله الحكم القدري فهو الذي له الأمر تبارك وتعالى كله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، لا رافع لما خفض ولا خافض لما رفع ، لا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض ، الأمر بيده تبارك وتعالى لأنه هو الملك وهو الذي يتصرف في مملكته تبارك وتعالى كيف شاء ويحكم فيها تبارك وتعالى بعلمه وحكمته ويدبر كما أراد ، ولا يمكن أن يكون في ملكه تبارك وتعالى ولا ذرة إلا بمشيئته جل وعلا ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى . وأيضا يشمل الحكم الجزائي ؛ وهو المجازة والمحاسبة وإثابة المطيع ومعاقبة العاصي ، كل ذلك من ملكه ، من ملكه تبارك وتعالى وتدبيره ما ينزله من الكتب ويرسله من الرسل ويهدي إليه من الشرائع ويرضاه تبارك وتعالى من الدين كل ذلك من معاني المُلك .

وقوله سبحانه وتعالى يوم القيامة ((**أنا الملك أين ملوك الأرض**)) هذه الحقيقة كما قدمت لا تبرز جلية واضحة لكل الناس وعموم الخلق بكافة أصنافهم وجميع فئتهم إلا إذا وقفوا متجردين من الدنيا ليس معهم منها شيء ، اضمحلت الأمور وانقشعت الحقيقة وتجلى الأمر فيقول تبارك وتعالى: ((أنا الملك أين ملوك الأرض)) أين ذاك الملك الذي يُزعم والسلطان الذي يدَّعى والتعالي الذي يوجد؟ كلها تذهب وتضمحل ولا يبقى منها شيء والملك بيد الله تبارك وتعالى الواحد القهار ، كل ملكٍ يفنى وكل ملكٍ يزول ويبيد والله تبارك وتعالى المالك الذي بيده الملك جل وعلا ؛ مُلك الدنيا وملك الآخرة ، مُلك السماوات وملك الأرض وملك الخلائق ، الذي يحكم في خلقه وفي ملكه تبارك وتعالى كيف شاء وكما يريد سبحانه وتعالى .

قال : ((**وفي رواية عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر**)) وهذا فيه فائدة أن مما ينبغي أن يوعظ الناس به على المنبر ومما ينبغي أن يسمعونه في الخطابة الجامعة التي تعالج مشكلات الناس وتفتح لهم أبوابا في الهداية والصلاح وحسن الإقبال على الله تبارك وتعالى غرس الاعتقاد الصحيح وبيانه للناس وإيضاحه ، كما كان نبينا عليه الصلاة والسلام يصنع في خطبته ؛ غرس الاعتقاد الصحيح وأن يُزرع في قلوب الناس تعظيم الله جل وعلا وقدره عز وجل حق قدره وتعظيمه حق تعظيمه ، وأن يعرف الناس كمال قدرته وكمال قوته وكمال تدبيره جل وعلا ، فهذه المعاني العظيمة يفتقر الناس إلى بيانها وإيضاحها وتبيينها ولاسيما في الخطب الجامعة التي يوعظ فيها الناس ويذكَّرون بالله تبارك وتعالى ويذكَّرون بعظمته وجلاله وكمال اقتداره سبحانه وتعالى .

قال : ((قرأ هذه الآية يوما على المنبر)) فهذا كما قدمت يدل على مشروعية هذا العمل والحاجة إليه أن تُقرأ هذه الآيات وأمثالها من آيات التوحيد والآيات التي تبين عظمة الله جل وعلا ؛ تُبين للناس وتقرأ على المنبر وتشرح معانيها وتوضح دلالاتها حتى تقوى صلة الناس بالله وإيمانهم به .

قرأ قول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ؛ قرأ هذه الآية صلوات الله وسلامه عليه وهو واقف على المنبر يخطب الناس صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عمر: ((**ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده يحركها ويقبِل بها ويدبر**)) لما قرأ عليه الصلاة والسلام قول الله تبارك وتعالى ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ قبض النبي صلى الله عليه وسلم بيده وأخذ يهزها عليه الصلاة والسلام يحركها إلى الأمام وإلى الخلف يقبِل بها ويدبر ، يحركها عليه الصلاة والسلام وهو على المنبر إلى الأمام وإلى الخلف يقبل بها ويدبر ، حتى إن الصحابة رضي الله عنهم لما رأوا المنبر يهتز قالوا : ليخرن به ؛ يعني خشوا ان يخر المنبر يعني أن يسقط من الاهتزاز ، وهذا يدل على حماسة النبي عليه الصلاة والسلام ونصحه صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] فهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام .

وقبضه صلى الله عليه وسلم بيده وهزها هذا كما بين أهل العلم المراد به: تحقيق الوصف ، وأن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يقبض الأرضين بيده حقيقة ويطوي السماوات بيمينه حقة ويهزهن تبارك وتعالى بيده حقيقة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام قبض بيد نفسه لأجل تحقيق الوصف وبيان أن هذا أمرٌ يكون يوم القيامة حقيقة يفعله رب العالمين جل وعلا ، ليس هنا تشبيه للقبض بالقبض ولا تشبيه لليد باليد ولا تشبيه للفعل بالفعل ، حاشا أن يكون ذلك ، وإنما المراد تحقيق الوصف . نظير هذا ما تقدم عندما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨] فوضع عليه الصلاة والسلام اصبعه الإبهام على أذنه والسبابة على عينه، قال العلماء: المراد بذلك تحقيق الوصف أنه تبارك وتعالى سميع حقيقةً بصير حقيقة ، سميعٌ بسمع بصيرٌ ببصر يليقان بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

فهذه الإشارة التي كانت منه عليه الصلاة والسلام بيده المراد بها تحقيق الوصف وتأكيد الأمر وأنه يكون الأمر يوم القيامة بأنه سبحانه وتعالى يقبض الأرضين ويطوي السماوات ويهزهن تبارك وتعالى ويقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟

قال: ((**يحركها ويقبل بها ويدبر، يمجد الرب نفسه**)) أي أنه سبحانه وتعالى لما يقبض الأرضين بيده ويطوي السماوات بيمينه ويهزهن يمجد نفسه ، والتمجيد: هو السعة في الثناء ، ومن أسمائه تبارك وتعالى «المجيد» وهو

دال على ثبوت المجد صفة له تبارك وتعالى ، والمجد معناه في اللغة: السعة ، وتمجيد الرب نفسه تبارك وتعالى: أي أنه عز وجل يكثر من ذكر الثناء على نفسه جل وعلا بذكر أسمائه العظيمة وصفاته العليا الكريمة سبحانه وتعالى يذكر ذلك يمجد نفسه . فالتمجيد: هو السعة ومما يوضح لكم هذا المعنى ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن الله سبحانه وتعالى قال: ((قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِى)) التمجيد: هو السعة في الثناء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ هذا تمجيد لله تبارك وتعالى وتوسعة في الثناء على الله عز وجل في تعداد صفاته وأسمائه.

فقال هنا: ((**يمجد الرب نفسه**)) أي يذكر من أسمائه وصفاته ما يمجد به نفسه أي يثني على نفسه بها جل وعلا، فذكر من الأسماء التي يذكرها تبارك وتعالى ممجدًا بها نفسه : ((**أنا الجبار أنا المتكبر أنا العزيز أنا الكريم**)) يذكر هذه الأسماء سبحانه وتعالى ممجدا بها نفسه .

((**أنا الجبار**)) والجبار: اسم من أسماء الله تبارك وتعالى ، والمعنى الذي يدل عليه هو الجبر وهو يتناول أمورا منها : جبر القلوب المنكسرة بإصلاحها وتزكيتها ، وكذلك من معاني الجبار: انتقامه تبارك وتعالى من العتاة وقصمه لظهور الجبابرة والمعتدين ، فالجبار يعطي معنى البطش والقوة والانتقام ويعطي أيضا معنى اصلاح قلوب أهل الإيمان وجبر قلوبهم وتزكيتهم وإصلاح أحوالهم ، فهذه كلها من المعاني التي يدل عليها هذا الاسم العظيم ((أنا الجبار)) .

((**أنا المتكبر**)) والمتكبر: اسم يدل على صفة الكبرياء لله تبارك وتعالى ، والكبرياء صفة مختصة به ، ومن نازع الله عز وجل في كبريائه قذفه الله عز وجل يوم القيامة في النار كما جاء في الحديث الذي في صحيح ((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ)) ، فالله عز وجل هو المتكبر أي الذي له الكبرياء . ومن الذكر الذي كان يقوله عليه الصلاة والسلام في ركوعه وسجوده «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» ، قوله والكبرياء أي ذي الكبرياء ، والعظمة أي وذي العظمة ، فالله عز وجل مختص بذلك جل وعلا ؛ فهو العظيم الذي له العظمة ، وهو المتكبر الذي له الكبرياء .

ومن كان يتكبر في هذه الحياة الدنيا ويتعالى على الناس ويتعاظم ويترفع على عباد الله سينجلي له الحق وتتبين له الحقيقة عندما يقف على صعيد وعرصات يوم القيامة ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١] ، عندما يقف ذاك الموقف العظيم يذكر أن كبرياءه سرابٌ وأن كبرياءه ضياع عندما يقف بين يدي الله تبارك وتعالى يوم القيامة ، الكبرياء لله ، ومن يتكبر في هذه الحياة على الناس ويتعالى على خلق الله تبارك وتعالى هو في الحقيقة ما عرف

نفسه، وإلا لو تأملا في حقيقة نفسه وتدبر أمره لذهب من قلبه الكبرياء ، الإنسان ما هو حتى يتكبر؟ الإنسان مخلوق أوله نطفة وآخره جيفة يلقى أو يدفن في حفرة وتأكل لحمه الديدان وتأكله الأرض ، وهو بين ذلك يحمل في بطنه العذِرة على أي شيء يتكبر؟! ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧] على ماذا يتكبر الإنسان؟ من يتكبر ما عرف حقيقة نفسه ، لكن يوم القيامة يُحشر المتكبرون في غاية الذل وهم في غاية الصغار والضعة ويعرفون حقيقة تكبرهم ، فيقول الله سبحانه وتعالى : ((**أنا الجبار أنا المتكبر**)) ، وكما قدمت هذه معاني تظهر للناس كلهم ؛ في الدنيا يوجد من يتجبرون ومن يتكبرون ومن يتعاظمون ومن أيضا يغتر بتجبرهم وتعاظمهم وتكبرهم ويظنهم على شيء ، لكن هذه كلها تنقشع وتنجلي وتتضح لعموم الخلائق يوم القيامة.

يقول جل وعلا ((**أنا الجبار أنا المتكبر أنا العزيز**)) والعزيز: هو القاهر الذي لا يغلب الذي بيده أزمة الأمور تبارك وتعالى قال أنا العزيز .

((أنا الكريم)) يذكر تبارك وتعالى كرمه جل وعلا وجوده وسخاءه ومنَّه وأفضاله جل وعلا ، وكرمه سبحانه الذي يثني على نفسه به في ذلك اليوم العظيم ليس لكافرٍ فيه مطمع ولا حظٌّ له فيه ولا منال ، فالرب العظيم واسع الكرم واسع الجود واسع المن واسع العطاء عظيم الصفح جل وعز ، ليس لكافر في كرمه سبحانه وتعالى ورحمته ومغفرته مطمع ، وهذا أمرٌ قُطع به في كتاب الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] . قال ((يقول أنا الكريم)) .

يقول ابن عمر : ((**فيرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر**)) يرجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يهز يده يقبِل بها ويدبر ؛ فيهتز جسمه لاهتزاز يده مقبلة مدبرة ، ويهتز المنبر تبعا لاهتزاز جسم الرسول عليه الصلاة والسلام عليه ، حتى إن الصحابة لما رأوا اهتزاز المنبر من تحته عليه الصلاة والسلام قال : ((**حتى قلنا ليخرن به**)) ليخرن أي يسقط المنبر برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا كما قدمت مما يبين لنا كمال نصح النبي عليه الصلاة والسلام ، كمال نصحه في خطابته للناس وبيانه لهم ، وقد وصفه بعض أصحابه أنه عليه الصلاة والسلام «إذا خطب الناس احمر وجهه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم» ، منذر الجيش معروفة صفته عندما يداهم الجيش بلدًا من البلدان فيأتي واحد من أهل هذا البلد يخبر أهل البلد بالجيش الذي داهمهم كيف تكون صفته ؟ قال: كأنه منذر جيش أي كأنه منذر قومه من جيش وصلهم وداهم بلدهم ، كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ؛ جاءكم الجيش يعني في هذا الصباح وصلكم أو في هذا المساء ، كأنه منذر جيش . فكان عليه الصلاة والسلام معلمًا أمينا وناصحا مشفقا صلوات الله وسلامه عليه ، وما ترك إلا دل الأمة عليه ولا شرا إلا حذرها منها .

وهنا يا إخوان يعجب المسلم غاية العجب عندما يتأمل في نصح النبي العظيم هذا في بيانه للدين وبيانه للاعتقاد وبيانه لأصول الإيمان بهذه القوة وبهذا النصح الكامل منه صلوات الله وسلامه عليه ثم يجد أقوامًا وهم كثيرون يدَّعون الانتساب إليه ولا يأخذون الاعتقاد عنه!! وإنما يأخذون الاعتقاد عن عقولهم هم ، ويبنون اعتقادهم على عقولهم ، حتى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بما فيها هذا الحديث الذي فيه نصحه عليه الصلاة والسلام لا يأخذون منه عقيدةً بل يتشاغلون بتأويل هذا الحديث وردِّه ورد غيره من نصوص الصفات ، سواء منها ما جاء في كتاب الله أو ما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فترى هؤلاء يقفون عند مثل هذه النصوص ويقول قائلهم : اليد ما تليق بالله ، ولو أثبتنا اليد للزم كذا ولزم كذا .. ويدخل في تخرصات عقلية وخوضٍ باطل وقولٍ على الله تبارك وتعالى بلا علم وجحدٍ وإنكار لما وصف الله تبارك وتعالى به نفسه وما وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ويتألى على الله جل وعلا ويقول عليه لا علم في أسمائه وصفاته ، وهذه من أنكر المنكرات وأعظم المحرمات؛ القول على الله تبارك وتعالى بلا علم ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[البقرة:١٤٠] ، هل هم أعلم بالله من رسوله عليه الصلاة والسلام !! يقف صلى الله عليه وسلم ناصحا للأمة خطيبا على المنبر يقرأ هذه الآية الكريمة ويقبض عليه الصلاة والسلام بيده ويهزها أمام الناس مؤكدا هذا الأمر مؤكدا وقوعه وأنها حقيقة ستكون يوم القيامة ثم يأتي أقوامٌ ينتسبون إليه عليه الصلاة والسلام ويجحدون ذلك وينفونه!! وينفون ثبوت اليد صفة لله جل وعلا ويقولون : لو أثبتناها للزم كذا وللزم كذا من أمور عقلية واستنتاجات عقلية نتيجتها جحد صفة الله سبحانه وتعالى .

وقد نبهت فيما سبق أن من أرخى لعقله الزمام وأطلق له العنان يخوض في هذا الباب متخرصًا متكلفا قائلا بلا علم يأتي بالأباطيل وأنواع الأضاليل ، ولعلنا نذكر جميعا حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي مر معنا قريبا قال عليه الصلاة والسلام : ((إن رجلا قال إن لاالله لا يغفر لفلان، فقال الله عز وجل من هذا الذي يتألى عليَّ غفرت له وأحبطت عملك)) ؛ قال إن الله لا يغفر لفلان ، قوله "إن الله لا يغفر لفلان" هذا الرجل أرخى لعقله العنان وأخذ يستنتج وأخذ يسبر حال ذلك الرجل وجد عنده معاصي كثيرة وجد عنده تفريط وتقصير عظيم وأخذ يستنتج وتوصل عقله إلى هذه النتيجة الله لا يغفر لفلان ، لم يجحد أن الله غفور ولكنه حجَّر المغفرة حجَّر واسعا وأقحم عقله في مشيئة الله وفي علمه وحكمته ، من أنت حتى تقول الله لا يغفر لهذا أو لا يرحم هذا أو يرحم ذاك ؟! هذا أمر بيده ويرجع إلى حكمته ومشيئته سبحانه وتعالى . فالقول على الله سبحانه وتعالى بلا علم من أعظم الجرائم وأخطرها ؛ ولهذا الجادة السليمة والطريق القويم في هذا الباب : أن يثبت المسلم لله تبارك وتعالى صفاته كما أثبتها الله لنفسه وكما أثبتها له رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم أورد المصنف رحمه الله رواية أخرى لهذا الحديث عن ابن عمر قال : ((**روى مسلم عن عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يأخذ الله سماواته وأرضيه بيديه فيقبضهما**)) وقوله «بيديه» فيه إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى ، وثبوتهما جاء في القرآن

الكريم في مواضع منها : قوله سبحانه وتعالى ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:٦٤]، وقوله جل وعلا ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] ، فالله سبحانه وتعالى له يدان حقيقيتان تليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

قال : ((**يأخذ الله سماواته وأراضيه بيديه فيقبضهما**)) ذُكر في الحديث هنا صفتان لليد الأخذ والقبض ومر معنا الطي ؛ فهذه كلها صفات ليد الله ، وذكرت لكم أن ابن القيم رحمه الله أوصلها إلى قرب المئة صفة في كتابه الصواعق، كلها صفات تؤكد ثبوت اليد حقيقةً لله جل وعلا كما يليق بجلاله وكماله وعظمته .

وهنا خذوا فائدة مهمة في هذا الباب قبل المواصلة وهي: أن العلماء رحمهم الله يقولون «الإضافة تقتضي التخصيص»، معنى ذلك أن ما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى من الصفات ومنها اليد كما هنا في هذا الحديث ، ما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى من الصفات تخصه وتليق به ، وما يضاف إلى المخلوق من الصفات تخص المخلوق وتليق به ، فاليد إذا أضيفت إلى من ليس كمثله شيء ماذا يكون شأن هذه اليد؟ -انتبهوا يا إخوان - يكون شأنها ليس كمثلها يد أضيفت إلى من ليس كمثله شيء ، وعندما تضاف اليد إلى المخلوق الناقص أي شيء يكون شأنها؟ تكون بحسب من أضيفت إليه ؛ فيد المخلوق تليق بالمخلوق ويد الخالق تليق به ، فاليد المضافة إلى الله شأنها كما قال الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته متفرد ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١] فهو جل وعلا أحد لا سمي له ولا مثيل ولا ند ولا نظير تنزه وتقدس عن ذلك ، فاليد عندما تضاف إلى الله جل وعلا فهي يد تخص الرب سبحانه وتعالى وتليق بجلاله وكماله ، فلا تُجحد اليد ولا أيضا تشبَّه بأيدي المخلوقين كل ذلك ضلالٌ وباطل ، والحق قوام بين تعطيل المعطل وتمثيل الممثل ، الحق إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ، على حد قول الله تبارك وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

قال : ((**فيقبضهما فيقول أنا الملك ، ويقبض أصابعه ويبسطها**)) أي أنه عليه الصلاة والسلام كان على المنبر يقبض أصابعه ويبسطها ، وهذا كما قدمنا المراد به تحقيق الوصف وأنه ثابت حقا ، وأن هذا الأمر يكون يوم القيامة كما أخبر الله عن ذلك في كتابه العزيز وكما أخبر عن ذلك رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

((**يقبض أصابعه ويبسطها فيقول أنا الملك**)) وهذا فيه إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يكون منه ذلك ؛ يقبض السماوات ويقبض أصابعه تبارك وتعالى ويبسطها ، وهذا فيه ثبوت الأصابع ، والأصابع ثابتة في السنة لله جل وعلا على الوجه اللائق بجلاله ، والحديث في الصحيحين وغيرهما ((أن حبرًا من أحبار اليهود جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : إن الله يوم القيامة يضع السماوات على اصبع ، والثرى على إصبع، والشجر على اصبع،

فلما ذكر ذلك ذاك الحبر ضحك النبي عليه الصلاة والسلام حتى بدت نواجذه ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧])) لماذا ضحك عليه الصلاة والسلام ؟ قال ابن مسعود راوي الحديث: «ضحك تصديقًا لقوله» ، فهذا الضحك في هذا المقام المراد به تصديق قوله ، أيمكن أن يكون ضحك النبي عليه الصلاة والسلام منكرًا لقوله ؟ من يقول ذلك ما قدر الرسول عليه الصلاة والسلام قدره ، إذ كيف يقال في حقه صلى الله عليه وسلم أنه في مجلسه وعنده يقال في حق الله ما لا يليق به فيضحك حتى تبدو نواجذه !!كان عليه الصلاة والسلام إذا انتهكت حرمات الله لا يقوم لغضبه شيء ، حتى إن عائشة رضي الله عنها ذكرت أنه ما غضب لنفسه قط عليه الصلاة والسلام ، فإذا انتُهكت حرمات الله لا يقوم لغضبه شيء يشتد غضبه عليه الصلاة والسلام ، فكيف يقال فيمن هذه صفته أنه يقال أمامه وفي مجلسه وبين يديه في حق الله ما لا يليق به ولا يزيد إلا أن يضحك حتى تبدو نواجذه ، فهو عليه الصلاة والسلام ضحك لما سمع هذا الحبر يقول ذلك تصديقا لقوله عليه الصلاة والسلام .

الأصابع ثابتة في هذا وفي غيره من الأحاديث منها قوله عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)) ، وجادة أهل السنة رحمهم الله وألحقنا بهم جادة مباركة ، جادة آمنة ، جادة سالمة ما فيها عثار وليس فيها منزلقات وليس فيها ورطات ، جادة مستقيمة تثبت لله ما أثبته الله لنفسه ، وتثبت له ما اثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام على الوجه اللائق بجلال الرب تبارك وتعالى وكماله .

قال : ((**فيقول أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه**)) أي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرك من تحت قدميه صلوات الله وسلامه عليه .

((**حتى إني لأقول** –أي ابن عمر– **أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم**)) أي خشي أن يسقط المنبر من تحرك النبي صلوات الله وسلامه عليه على المنبر. وكما قدمت كل ذلك من كمال النصح الكريم عليه الصلاة والسلام. وأعيد ما ذكرته من تعجب من حال أقوام نصح نبيهم عليه الصلاة والسلام لأمته غاية النصح فهجروا نصحه وأعرضوا عن بيانه وأقحموا عقولهم القاصرة قائلين على الله تبارك وتعالى بلا علم .

قال رحمه الله :

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إقبلوا البشرى يا بني تميم)) قالوا قد بشرتنا فأعطنا قال : ((إقبلوا البشرى يا أهل اليمن)) قالوا : قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر ؟ قال : ((كان الله قبل كل شيء وكان عرشه على الماء ، وكَتَبَ في اللوح المحفوظ ذِكْرَ

كل شيء)) قال : فأتاني آتٍ فقال : يا عمران انحلَّت ناقتك من عقالها ، قال : فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدي .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أبو نجيح ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**اقبلوا البشرى يا بني تميم**)) وهذا كان عام الوفود في أواخر عهده عليه الصلاة والسلام كانت تأتيه الوفود من الأنحاء يفدون عليه –عليه الصلاة والسلام– ويعلمهم عليه الصلاة والسلام ويفقههم في دين الله ويبين لهم ما أمره الله تبارك وتعالى ببيانه ، فجاءه هذا الوفد من بني تميم فقال ((اقبلوا البشرى)) ، والبشرى هنا أطلقت والمراد: البشرى بسعادة الدنيا والآخرة بقبول هذا الدين الذي جاء به عليه الصلاة والسلام والإقبال عليه ، وأن من أقبل على هذا الدين وحفظه وحافظ عليه والتزم به وثبت عليه إلى الممات يفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، يفوز بالبشارة مطلقة التامة الكاملة ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [يونس:٦٤] لهم أكمل البشارة ، لهم البشارة المطلقة ولهم البشارة المقيدة ؛ البشارة المطلقة بكل خير ، والبشارة المقيدة ما جاء منها مقيدة إما بالجنة أو برضا الله أو نحو ذلك مما جاء ذكره في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

((**اقبلوا البشرى يا بني تميم**)) وهو عليه الصلاة والسلام بعث بشيرا ونذيرا ؛ يبشر بالخير وبسعادة الدنيا لمن التزم وتمسك بذلك ، وينذر من الشر ومن النار وسخط الله تبارك وتعالى الذي يناله من أعرض ومن كفر بالله عز وجل قال ((اقبلوا البشرى يا بني تميم)) .

((**قالوا قد بشَّرتنا فأعطنا**)) كأنهم أرادوا عطاء منه عليه الصلاة والسلام مما آتاه الله عز وجل من أمور الدنيا ومتاعها

ثم جاء وفد آخر من أهل اليمن قال لهم عليه الصلاة والسلام : ((**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن**)) قالوا : «**قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر؟**» أول هذا الأمر الإشارة هنا إلى هذا الأمر أي الأمر المشاهد هذا الكون المشاهد السماوات والأرضون والجبال وهذه المخلوقات ما هو أولها؟ أخبرنا عن أول هذا الأمر ما هو أوله؟ والإشارة هنا إلى هذا الكون المشاهَد وهذه المخلوقات المعاينة المشاهدة السماوات والأرض والجبال ، أخبرنا عن أول هذا الأمر؟

قال : ((**كان الله قبل كل شيء**)) مثل هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة إذا أراد أن ينام إذا أوى إلى فراشه ((اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيء)) كان الله ولم يكن شيء قبله .

((**وكان عرشه على الماء**)) والعرش مخلوق من مخلوقات الله لوجوده أولية ولوجوده بداية ، لم يكن موجودًا فخلقه الله، وكل مخلوق من مخلوقات الله مسبوق بعدم ، والله سبحانه وتعالى أول ليس قبله شيء ، وكل مخلوق لوجوده بداية وهو مسبوق بعدم وكان بعد أن لم يكن ، والله سبحانه وتعالى كان ولم يكن شيء قبله . قال ((وكان عرشه

على الماء)) وهذا فيه إثبات العرش وخلق الله تبارك وتعالى للعرش ؛ خلقه سبحانه وتعالى وأوجده بعد أن لم يكن ، والعرش هو أعلى المخلوقات وسقفها . قال ((وكان عرشه على الماء)) .

((**وكَتَبَ في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كل شيء**)) فبين هنا عليه الصلاة والسلام أن أول المخلوقات فيما يتعلق بهذا العالم القلم ، ولهذا جاء في بعض الروايات ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)) ، وليس في هذا دلالة على أن القلم خلق قبل العرش ، العرش مخلوق قبل القلم لكن الأولية هنا تتعلق بما سئل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو هذا العالم ؛ السماوات والأرض والجبال.

قال: ((**وكَتَبَ في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كل شيء**)) وجاء في بعض الروايات ((كتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة)) كتب ما هو كائن بتفصيل تام كامل ، ومن فقه الصحابة لهذا العموم والشمول في الكتابة يقول ابن عباس رضي الله عنه: «كل شيء بقدر حتى وضعك كفك على ذقنك هكذا بقدر»، كل شيء بقدر أي حركة يتحركها الإنسان وأي سكون وأي قيام وقعود كل ذلك بقدر كُتب في اللوح المحفوظ .

هذا يبين لنا عظمة الخالق سبحانه وتعالى وكمال علمه جل وعلا ، كل ما هو كائن بالتفاصيل الدقيقة بالجزئيات الدقيقة بالأمور اليسيرة كلها كُتبت تفصيلا بدقة لا يفوت شيء في اللوح المحفوظ ، متى؟ حتى هذا الاجتماع الذي منَّ الله عز وجل علينا به ونسأل الله ان يتقبله بقبول حسن ، سخره ويسره فنسأل الله أن يتقبله ، كُتب في اللوح المحفوظ متى؟ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، هذه التفاصيل كلها بدقة وما يكون من الناس من حركات ؛ حركة يسيرة أو قليلة خائنة الأعين ما تخف الصدور الأعمال التي في القلوب كل التفاصيلُ كتبت بدقة لم يترك منها جزء يسير لم يترك منها ذرة واحدة ، هذا يدل على ماذا؟ كمال علم الله عز وجل ، علِم ذلك في الأزل وأحاط علمه وكتب ذلك في اللوح المحفوظ ، خلق سبحانه وتعالى القلم ، والقلم مخلوق لله أوجده بعد أن لم يكن وقال له اكتب ، وقال القلم لله سبحانه وتعالى ماذا أكتب؟ أي شيء أكتب؟ قال ((اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)) فأجرى الله عز وجل القلم بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة ،كل التفاصيل التي تكون إلى يوم القيامة كُتبت بالقلم في اللوح المحفوظ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾[القمر:٥٢-٥٣] كل ذلك مكتوب ؛ فهذا يدل على كمال علم الله ، وسيأتي عند المصنف بابٌ عظيم في إثبات القدر بمراتبه : العلم المحيط الشامل ، والكتابة لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة ، والمشيئة النافذة مشيئة الله سبحانه وتعالى النافذة ، وأن كل ما يكون ويوجد هو خلق له ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الزمر:٦٢] ، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات:٩٦] ، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢] ، سيأتي عند المصنف رحمه الله باب خاص في هذا . قال ((وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء)) .

الحديث لا يزال متصلا من النبي عليه الصلاة والسلام لكن عمران يقول : ((**فأتاني آتٍ** -يعني جاءني رجل- **وقال: يا عمران انحلَّت ناقتك من عقالها**)) والعقال: ما يوضع في يد الناقة وهو المكوَّر المدور يوضع في يد الناقة إذا بركت بحيث لا تستطيع أن تقوم ،كلما أرادت أن تقوم منعها العقال ، ولا تزال الناقة تحاول أن تقوم وفي يدها العقال فتجد العقال ينحل من يدها شيئا فشيئا إلى أن يسقط العقال فتقوم ، فهي تتكرر منها المحاولة، ولهذا صاحب الإبل يحتاج أن يتعاهدها دائما ، إذا وضع فيها العُقُل يحتاج أن يتعاهدها دائما يمر فما انحل منها عقاله يعيده ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا)) .

قال: ((**فأتاني آت قال يا عمران احلت ناقتك من عقالها فخرجت في إثرها**)) يعني خرج يطلب ناقته قال : ((**فلا أدري ما كان بعدي**)) وهذا اعتذار من عمران عن سبب ذكره بقية الحديث لهذا العذر الذي حصل له وهو ان ناقته انحلت من عقالها وذهبت وذهب في إثرها يُرجعها ويعيدها فيقول لا أدري يقول ذلك معتذرا رضي الله عنه وأرضاه . وهذا أيضا من كمال أدب الصحابة رضي الله عنهم وحرصهم ونصحهم في بيان كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما كان للكلام بقية فاتته لهذا السبب اعتذر بهذا الأمر العارض الذي حصل له .

هذا الحديث والأحاديث التي قبلها وكذلك الأحاديث الآتية كلها في بيان عظمة الله جل وعلا ، وأنه سبحانه وتعالى الرب العظيم والخالق الجليل والملك المتصرف المدبر لهذا الكون ، وأنه تبارك وتعالى المستحق للعبادة وحده تبارك وتعالى دون سواه ، وأن من صرف شيئا من العبادة والذل والخضوع لغيره ما قدر ربه تبارك وتعالى حق قدره وما عظمه سبحانه وتعالى حق تعظيمه .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .